

في البيت لا يختم العزيم

جاء البربان

الدكتور محمد مصطفى هدارة



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان

في اللغة العربية
علم البيان



دار العلوم العربية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٩ م ١٤٠٩ هـ

الناشر

دار العلوم العربية

للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنفات
صانف: ٣٠٧١٧٣
صوب: ١١-٩٥٣٥
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد ،
فهذا كتاب في علم البيان وهو أحد علوم البلاغة العربية وأشدها اتحاداً
بمباحث النقد الأدبي وأقربها إلى الأصول الفنية التي تعتمد على التذوق
الجمالي .

وإذا كانت قيمة ما يكتب أو يقال ترجع إلى ما يفيد من معنى ، فهذا
المعنى لا تتضح معالم قيمته إلا من خلال صياغته التعبيرية . والمعنى الذي
كان موضع اهتمام النقاد والبلاغيين العرب في كل العصور هو ما يعبر عنه النقد
الحديث بكلمة (المضمون) أما صياغته التعبيرية فهي التي تعبر عنها كلمة
(الشكل) . وما من شك في اتحاد الشكل والمضمون اتحاد الجسم والروح .
فالمعنى شيء مبهم في نفس من يريد التعبير عنه حتى يهتدي إلى الصياغة
التي تتوالى فيها الألفاظ بترتيب معين وعلاقات حميمة ونسق من التصوير ،
ليصير لهذا المعنى وجود حقيقي ينفذ إلى عقل من يسمعه أو يقرؤه وإلى
وجدانه معاً .

وإذا عرفنا البلاغة بعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع تعريفاً أولياً
قلنا إنها تتناول صياغة المعاني والتعبير عنها تعبيراً فنياً جميلاً . وعلم البيان

موضوعة الصور الخيالية المبتدعة في صياغة المعنى للتعبير عنه ، وفي هذه الصور تعقد صلة بين أمرين قد لا تكون بينهما في الواقع أية صلة ، وهذه الصور تتمثل في خيال المنشئ مرتبطة بثقافته ورؤاه وتجاربه .

ولما كانت (البلاغة) مشتقة من مادة (بلغ) التي تعني الوصول إلى الغاية ، كان هدفها إيصال المعنى واضحاً كاملاً إلى ذهن القارئ أو السامع . والعبارة الجميلة في الشعر أو النثر العالين تحدث للسامع أو القارئ هزة سرور أو إعجاب أو روعة ، تلك الروعة هي التي تجعلنا نصف الأثر الأدبي بصفة الجمال . ولو سألنا أنفسنا ما مصدر هذه الروعة أو الإعجاب أو السرور لقلنا في أغلب الظن إن الشاعر أو الكاتب أو الخطيب عبر عما في نفوسنا أدق تعبير وأكمل ، كأنما كان في نفوسنا معنى طائر مبهم فجاء هذا المنشئ الذي شعر بمثل ما أحسنه وإن تميز بمزيد من رهافة الشعور والقدرة اللغوية والتذوق الجمالي فأداه أداء لا يتيسر للإنسان العادي ، على أن إيصال المعنى كاملاً إلى ذهن القارئ أو السامع ووجدانه مطلب عسير ، فأى عبقرى لا يبقى بعض معانيه غامضاً أو مضطرباً ، وبعض ألفاظه قلقاً أو نايباً ، لا جرم تتفاوت درجات البلاغة ، ولكنها تظل بعيدة عن الكمال المطلق الذي تحاول البلاغة أن ترسم في قواعدها وسائل الوصول إليه .

وقد يقال إن الكتابة العلمية تستحق الوصف بالبلاغة أيضاً إذا عبر الكاتب عن معناه بعبارة واضحة خالية من اللبس ، فإنه بذلك يكون قد أجاز التعبير عن المعنى ، ولكننا نربط البلاغة عادة بالجمال الأدبي ، حيث تكون للعبارة أنواع من التأثير تتجاوز المعنى البسيط الذي يمكن أن تعبر عنه اللغة العلمية . ومن هذا التأثير استحضار الصور البعيدة وربط المعاني المجردة بالمحسوسات وهذا هو موضوع علم البيان .

ومن المسلم به أن الكتابة الأدبية لا تحاول أن تتقصى وصف الموجودات الخارجية في الواقع استقصاء حقيقياً ولا علمياً ، ولا تلتزم بالنقل

من الواقع نقلاً صرفياً ، ويمكن القول بأن للشاعر أو الكاتب أن يخالف الواقع لينقل إلى القارئ معنى خاصاً يجول في نفسه ولكنه إذا انحرف عن الواقع دون أن يقصد إلى معنى معين بهذا الانحراف فذلك خطأ ينبغي أن يحاسبه عليه النقاد . وما أسلوب الاستعارة وهو واحد من أساليب علم البيان إلا نوع من مخالفة الواقع لأنه ينقل الأسم عن معناه الحقيقي ، ولكن الشاعر إذا نقل الأسم عن معناه دون قصد إلى الاستعارة كان مخطئاً ، ولذلك عيب على الشاعر قوله :

وقد أتناسى الهمم عند احتضاره بناجٍ عليه الصَّيْعِرِيَّةُ مُكْدَمٍ
فقال ناقدته : استنوق الجمل ، أي صار الجمل ناقة ، لأن الصَّيْعِرِيَّةِ
سمة تكون في النوق ولا تكون في الجمال .

وعيب على الشاعر الإنجليزي شكسبير قوله على لسان إحدى الشخصيات في مسرحية من مسرحياته التاريخية : انطلق كالرصاصة ، مع أن التشبيه في ذاته صحيح ومعبر عن معنى السرعة الهائلة ، لكن الخطأ وقع باعتبار أن البارود لم يكن قد اخترع في العصر الذي تدور فيه أحداث المسرحية .

والأدب قبل كل شيء تعبير عن شعور ، وسواء أعبر الشاعر أو الناشر عن هذا الشعور تعبيراً مباشراً ، أم تكلم من خلال شخصيات يستوحىها من الواقع المعاصر تارة ومن التاريخ تارة أخرى فإنه يثير إعجابنا ببصيرته النفاذة التي تكشف عن خفايا النفوس البشرية في أطوارها المختلفة وطباعها المتباينة ، فحين نقرأ بيت المتنبي مثلاً :

مُنَى كُنْ لِي أَنْ الْبِيَاضَ خِيَابُ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
نراه قد كشف في ومضة من ومضات الخيال عن رغبتين من الرغبات الدفينة في النفس الإنسانية : رغبة الشاب في أن يبدو كبير السن فهو يتشبه

بالكبار ، وحسرة الشيخ على ما مضى من شبابه فهو يتشبث به ما استطاع ، فإذا كان الشيخ يخضب شعره بالسواد ليبدو شاباً ، فإن الشاب يتمنى لو استطاع أن يخضب شعره بالبياض ليخفي شبابه .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أبرز القواعد البلاغية كما تثبت في كتب التراث البلاغي ، ولكنني في الوقت ذاته أردت تحريرها من جمودها ووثبات أمثلتها والتخفف من التقسيمات والتفريعات ما أمكنني ذلك ، وربطها بالنقد الأدبي ، خاصة أن مواد البيان تتصل اتصالاً وثيقاً بالصورة الفنية . وقد جعلت ذلك كله في القسم الأول الذي يتحدث عن نشأة علم البيان وتطوره ، وعن مواده وأصوله وقواعده ، وفي القسم الثاني الذي اخترت فيه نصوصاً من التراث البلاغي في علم البيان مرتبة ترتيباً تاريخياً . .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب طلابنا في الجامعة والمتخصصين الذين ينشدون التذوق وإدراك أسرار الجمال الفني ، وبالله التوفيق .

القسم الأول

علم البيان : نشأته وتطوره وأقسامه

الفصل الأول

نشأة علم البيان وتطور مباحثه

ارتبطت البلاغة بالنقد في النشأة الأولى حين كانت تُعقد الموازنات بين الشعراء ويتم تفضيل بعضهم على بعض . وكانت أسواق العرب - لا سيما سوق عكاظ - تضم ندوات أدبية تنشر فيها الأشعار وتلقى الأحكام الأدبية المطلقة التي تخلو من التحليل والتعليل .

وكان طبيعياً أن يؤثر الإسلام تأثيراً قوياً في نشأة العلوم البلاغية ، وأن يلفت إعجازه النظر في أسباب هذا الإعجاز ، وقد وجدت أقوال تذهب إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى ما فيه من أخبار عن المغيبات كقوله تعالى : ﴿ ألم ، غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون في بضع سنين ﴾ ، وهذا النوع من الإعجاز ولا شك ، ولكنه ليس النوع الذي تحدى به القرآن العرب ، فقد تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، ولم يرد الإخبار عن المغيبات في جميع سور القرآن ، هذا إلى جانب أن التحدي إنما يكون في أمر يظنون أنهم قادرون عليه ، وما كان شعراؤهم وخطباؤهم يدعون علم الغيب ، إنما كانوا يدعون القدرة على صوغ الكلام البليغ ، ومن ثم فقد غلب الرأي القائل بأن إعجاز القرآن يرجع إلى بلاغته .

وكان العرب الأقحاح في أولية الإسلام يدركون بسلاقتهم السليمة أن

القرآن الكريم أنزل بلسان عربي مبين ، وأنه لا يشاكل شيئاً من كلام فصحاء العرب المشهود لهم بالبيان أما الموالي والخلودون فكانوا بحاجة إلى من يبين لهم أمرين : الأول أن القرآن الكريم يجري على قواعد العرب في لغتها ، والثاني أنه يتميز بنهج خاص في استعماله هذه اللغة وفي التعبير عن المعاني التي يتضمنها ، وهذا سر إعجازه . وقد ظهرت كتب في هذه المرحلة تحاول جلاء الأمرين معاً ، فهي تتناول (غريب القرآن) و (مشكل القرآن) و (إعراب القرآن) . ومن أوائل الكتب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، وكان من أئمة علماء اللغة والأدب في البصرة . وينبغي أن نلاحظ أن كلمة (مجاز) في هذا العنوان لا تعني بالضبط ما أصبحت تعنيه بعد ذلك في علم البيان ، فأبو عبيدة يستعمل كلمة المجاز في مقدمة الكتاب بمعنى (طريقة التعبير) فيقول مثلاً : « ومن مجاز ما حُذِفَ فيه وهو مضمَر . . » و « من مجاز ما كُفَّ عن خبره استغناء عنه وفيه ضمير . . » و « من مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه الى مخاطبة الغائب . . . » فكلمة (مجاز) في هذه المواضع تدل على ما تدل عليه اليوم كلمة (أسلوب) . وبعده المقدمة يأتي تفسير المواضع المشكلة من السور على ترتيبها في المصحف الشريف : وهنا نجد كلمة (مجاز) مساوية لكلمة (معنى) مرة ولكلمة (تفسير) مرة أخرى ، فمن الأول قوله في تفسير أول آية من سورة يونس ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ مجازها : هذه آيات الكتاب الحكيم أي القرآن ، والحكيم مجازه المحكم المبين الموضح ، والعرب قد تضع (فعيل) في معنى (مفعول) . وفي آية أخرى : هذا ما لدي عتيد ، مجازه : تُعدّ .

ومن الثاني ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ عَمَّوَاوَصُمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ مجازه على وجهين : أحدهما أن بعض العرب يظهرون كناية الاسم مع إظهار الاسم الذي بعد الفعل كقول أبي عمرو الهذلي : أكلوني البراغيث ،

والموضع الآخر أنه مستأنف لأنه يتم الكلام إذا قلت : عموا وصهموا ، ثم سكت ، فتستأنف فتقول : كثير منهم .

والمجاز في استعمال أبي عبيدة يمكنه على ما قدمنا من أمثلة - أن يشمل جميع الأساليب البلاغية ، ولكنه في الواقع يشير إشارات مجملة إلى بعض منها نقلاً كالحذف والمجاز المرسل (دون أن يسميه بهذا الاسم) وخروج الاستفهام عن معناه إلى معنى التقرير .

وكلمة البيان في أصل معناها اللغوي تدل على الوضوح والإبانة سواء في القول الملفوظ أم المكتوب ، أو الإشارة أو الهيئة التي يبدو عليها الشيء ، وهذا ما يطلق عليه (دلالة الحال) وهذا المفهوم هو الذي أسس عليه الجاحظ (توفي سنة ٢٥٥ هـ) تقسيمه لأنواع البيان . وقد ظل مصطلح (البيان) لفترة طويلة من الزمان متسعاً لمعان كثيرة ، منها الإعراب عما في النفس من خواطر وأفكار ومنها مضاهاة معنى الفصاحة والبلاغة في جمال التعبير وتمام الدلالة .

ثم تطور البحث البلاغي فأنصبح (البيان) علماً من علوم البلاغة ، ولكنه لم يصر كذلك إلا بعد أن قدم البلاغيون الأوائل جهوداً عظيمة لتفسير أركان هذا العلم . فالجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) قد أورد الكثير من التشبيهات والاستعارات ، وفتن إلى تقسيم اللفظ إلى حقيقة و مجاز ، وتحدث عن الكناية ، ولكنه أورد ذلك كله على سبيل الإدراك التذوقي ولم يضع حدوداً وتعريفات لهذه الأبواب البيانية . وكان في كلامه قدر كبير من التعميم فالمجاز عنده ضد الحقيقة وهو يشمل التشبيه والاستعارة بل يضاف إليها الكناية التي استخرجها من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم . بل نفهم من بعض أقواله أن المجاز قد يشتمل التعبير الأدبي كله ، حتى ما يدخل بعد ذلك في علم البديع وهو ما سماه اللغز في الجواب وهو نفسه الذي اصطلاح على تسميته بأسلوب الحكيم ، وما يدخل أيضاً في علم المعاني وهو إيجاز

القصر والحذف ، وأساليب الخبر والإنشاء .

وحين عرض الجاحظ للتشبيه نراه لا يستقر على مدلول واحد له ، فهو أحياناً البدل أو المثل أو التشبيه وقد يعني بالبدل الاشتراك بين المشبه والمشبه به أو المقارنة والمشاكلة بينهما . والتمثيل هو نوع من التشبيه وإن كان التشبيه عاماً والتمثيل أخص منه بحيث يمكن القول بأن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً . ويربط الجاحظ بين التشبيه والاستعارة وهي عنده تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ، والاستعارة بذلك تختلط عند الجاحظ بالتشبيه والتمثيل وقد أدرك الباحثون من كتابات الجاحظ أنه تنبه إلى طرفي التشبيه ووجه الشبه ، وإلى ما في التشبيه من تأثير وجداني ، وأنه عرف التشبيه المقلوب وأن وجه الشبه يكون في أظهر الصفات في المشبه به ، وأنه عرف من أدوات التشبيه الكاف وكأن ومثل وغيرها ، وأدرك اختلاف طرفي التشبيه بأن يكون أحدهما حسيّاً والآخر عقلياً ، كما أنه في تفسيره لقوله تعالى ﴿ طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قد فهم بأن المشبه به قد يكون وهمياً لا يدرك بشيء من الحواس الظاهرة .

وقد عرض الجاحظ لألوان من التشبيهات في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في مثل قوله (الناس كلهم سواء كأسنان المشط) وقابله بما وجدته عند الشعراء ، كذلك أورد تشبيهات مستمدة من الهيئة أو الحرفة ، أو مجتمعة في بيت كقول امرئ القيس :

له أيطلاً ظبي وساقاً نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ونص على تشبيه شيئين بشيئين كما في قول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولمح التشبيه البليغ الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه ، والتشبيه

التمثيلي .

ولا شك أن كتابات الجاحظ في وجوه البيان كانت رائدة في البلاغة العربية لكل من جاء بعده واستمد منه ، وبني على ما أسس ، ونلاحظ أن ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ قد عرض في كتبه المختلفة وخاصة (تأويل مشكل القرآن) لموضوعات في علم البيان كالحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وقد استفاد من كتابات الجاحظ على الرغم من اختلافهما المذهبي ، فالجاحظ معتزلي وابن قتيبة سني . فابن قتيبة في تعريفه المجاز مقارب لتصور الجاحظ فهو يقول في (تأويل مشكل القرآن) « وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول وماآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم لمعنى الخصوص ، مع أشياء كثيرة » ويستفاد من ذلك أنه فهم كالجاحظ أن المجاز معناه طرق التعبير الأدبي على وجه العموم .

وواضح أيضاً أنه استفاد من تفرقة الجاحظ بين الحقيقة والمجاز فهو يقول (وقد ذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز » . ولكن ابن قتيبة لم يتعمق في فهم المجاز ولا كيفية اختلافه عن الحقيقة في التعبير الأدبي ، ولهذا فسر الشياطين في الآية بأنها الحيات .

ثم جاء أبو العباس المبرد المتوفي سنة ٢٨٥ هـ فأورد في كتابه (الكامل) مسائل مهمة في علم البيان وقد عرض نماذج رفيعة من الشعر والنثر ، حللها وشرح ما فيها من موضوعات البيان كالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، وقد حدد في بعض المواقف مدلول هذه المصطلحات ، فالكناية

تؤدي أغراضاً ثلاثة: للتعمية والتغطية، للربغة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، للتفخيم والتعظيم. أما التشبيه فقد قسمه أربعة أقسام: مفرط، ومصيب، ومقارب، وبعيد، وساق في كل قسم أمثلة كثيرة.

وقد انتقد بعض الباحثين المحدثين^(١) المبرد لاستحسانه التشبيهات المأثورة عن الجاهلين استحساناً مطلقاً، بينا حمل على تشبيهات المحدثين دون تعليل لأحكامه في الاستحسان أو الاستهجان، فحين أورد أبياتاً لأبي نواس في صفة الخمر قال (هذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين) ولكن هذا القول ليس صحيحاً فالمبرد لم يتعصب قط لتشبيهات القدماء دون المحدثين، وكان موقفه من أبي نواس موقفاً نقدياً صحيحاً يقول (ومما يستحسن من شعره قوله:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
ومثل هذا لو تقدم لكان في صدور الأمثال).

ويقول في موضع آخر: «ومن أكثرهم تشبيهاً لاتساعه في القول وكثرة تفننه واتساع مذاهبه الحسن بن هانيء».

وهو يعدد في مواضع كثيرة التشبيهات الجيدة لأبي نواس، من ذلك قوله: «ومن تشبيهه الجيد... قوله:

ترى الناس أفواجاً إلى باب داره كأنهم رجلاً دَباً وجراد
فيوم لإلحاق الفقير بسذي الغني ويوم رقابٍ بوكرت بحصاد

ومن التشبيه الجيد قوله:

(١) هو الدكتور بدوي طبانة في كتابه (البيان العربي ص ٢٣٠).

فكأنني بما أزيّن منها قَعَدِيّ يُزِين التحكيما

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد .

ويعرف المبرد الاستعارة حين يقول بيت الراعي :

يا نُعَمَّها لَيْلَةٌ حَتَّى تَخَوَّنَها دَاعٍ دَعَا فِي فِرْعَوْنَ الصُّبْحِ شَحَاجٍ

وقوله (شحاج) إنما هو استعارة في شدة الصوت وأصله للبعغل ،
والعرب تستعير من بعض لبعض ، قال العجاج ينعت حماراً :

كَأَنَّ فِيهِ إِذَا مَا شَحَجَا عُوْدًا دُوَيْنَ اللَّهَوَاتِ مُوَلَجَا

أما التشبيه فقد أكثر المبرد في إيضاحه وتعريفه فهو يقول (والتشبيه جارٍ
كثيرٌ في الكلام أعني كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم
يُعبَد ، قال الله عز وجل ﴿ الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌّ ﴾ وقال : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ
رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية
فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها ، فكيف يقع
التمثيل ، فهؤلاء في هذا القول كما قال الله جل وعز : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ
يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ ﴾ ، وهذه الآية قد جاء تفسيرها على ضربين :
أحدهما أن شجراً يقال له (الأستن) منكر الصورة يقال لثمره (رؤوس
الشياطين) وهو الذي ذكره النابغة في قوله (تحيدٌ عن أستينٍ سودٍ أسافلُهُ)
وزعم الأصمعي أن هذا الشجر يسمى (الصُّوم) والقول الآخر وهو الذي
يسبق إلى القلب - أن الله جل ذكره شنع صورة الشياطين في قلوب العباد ،
فكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس .

وفي تحليل المبرد لأنواع التشبيه ما يدل على ذوقه الأدبي الرفيع وعدم
استمساكه بالمصطلحات في تقسيم جامد فالتشبيه المفرط في رأيه مثل قولهم
للسخي هو كالبحر وللشجاع هو كالأسد ، ثم يروي هذه الحكاية الطريفة وهو

أن : « امرأة عمران بن حطان قد قالت له : أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط ، قال : أوفعلت ، قالت : أنت القائل :

فهنالك مَجْزأة بن ثورٍ كان أشجعَ من أسامه

أفيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والأسد لا يفتح مدينة ! ويطلق المبرد أسماء كثيرة على ما يورده من تشبيهات فهناك (التشبيه القاصد الصحيح) وهناك (البعيد الذي لا يقوم بنفسه) . (التشبيه الجامع) (التشبيه العجيب) ، والجيد والحسن والمتجاوز والمحمود والمصيب والمليح والمقارب ، وغير ذلك ، وقد نبه المبرد على تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين ، كما أشار إلى أن العرب تختصر التشبيه وربما أومأت إليه إيماءة ومثل له بقول الراجز :

حتى إذا كاد الظلام يختلط جاءوا بِمَذْقٍ هل رأيت الذئب قط يقول : في لون الذئب ، واللبن إذا جُهدَ وخُليط بالماء ضرب إلى الغُبرة .

وكان لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفي سنة ٣٢٢ هـ إسهام كبير في تأصيل علم البيان فكتابه (عيار الشعر) استهدف الأصول الغنية للشعر بما يجعله رائعاً رفيع الجمال ، ومن بينها الصفة الفنية التي تعتمد فيما تعتمد على حوار البيان ، فالشاعر في رأيه (يكون كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف . . وكنازم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والتمين الراقق) . وقد اهتم ابن طباطبا بالتشبيه اهتماماً كبيراً فهو يقول (اعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها وهم أهل وبر ، صحنهم البوادي وسقوفهم السماء ، فليست تعدد أوصافهم ما رأوه منها وفيها ، وفي كل واحدة منها في فصول الزمان على اختلافها ، من شتاء وربيع وصيف

وخريف ، من ماء وهواء ونار وجبل ، ونبات وحيوان وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه ، وفي حال نموه إلى حال انتهائه . فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك كيائها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها ، في رخائها وشدتها ، ورضائها وغضبها ، وفرحها وغمها ، وأمنها وخوفها ، وصحتها وسقمها ، والحالات المتصرفة في خلقها وخلُّقها ، من حال الطفولة إلى حال الهرم ، وفي حال الحياة إلى حال الموت . فشبّهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتّها . فإذا تأملت أشعارها وفتشت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة تنفرج أنواعها ، فبعضها آمن من بعض ، وبعضها أطف من بعض ، فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل ما شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى . وربما أشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة ، وربما قاربه ، أو داناه أو شامه وأشبهه مجازاً لا حقيقة .

وفي موضع آخر من الكتاب يحدد ابن طباطبا أقسام التشبيه فيرى أنها : تشبيه الشيء بشيء صورة وهيئة ، وتشبيهه به معنى ، وتشبيهه به في الحركة والبطء والسرعة . وتشبيهه به صوتاً .

ونلاحظ أن ابن طباطبا يحاول استخراج حالات وجه الشبه وإيجاد وجوه التطابق بين المشبه والمشبه به في الهيئة أو الحركة أو الصوت ، وواضح أنه يؤمن بأن التشبيه خاضع لأثر البيئة وأن حسنه قد ينبع من صدق نظرة الشاعر ، فمن التشبيه الصادق قول امرئ القيس :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصايحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لِقُفال

فشبه النجوم بمصايح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصايحهم

وقيامهم عليها تزهروا إلى الصبح ، فكذلك النجوم زاهرة طول الليل وتتضاءل للصباح كضئائل المصابيح له . وقال تُشَبُّ لِقْفَالاً لأن أحياء العرب في البادية إذا قفلت إلى مواضعها التي تأوي إليها من مصيف إلى مشتي ، ومن مشتي إلى مربع أوقدت نيراناً على قدر كثرة منازلها وقتلتها ليهتدوا بها ، فشب النجوم ومواقعها من السماء بتفرق تلك النيران واجتماعها في مكان بعد مكان على حسب منازل القفال من أحياء العرب ، ويهتدي بالنجوم كما يهتدي القفال بالنيران الموقدة لهم .

وقد أسهم الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ بكتابه (الموازنة بين الطائيين) في تأصيل علم البيان ونجاحه عندما فصل القول في الاستعارة القبيح منها والحسن عند أبي تمام والبحثري وقد أخذ على أبي تمام غلوه وإغراقه في استعاراته التي لا تتفق مع مذهب العرب في الكلام فمن ذلك قول أبي تمام :

يا دهر قوم من أخذ عيكَ فقد أضججت هذا الأنام من خرقك
وقوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوباً
وقوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدي خطوب كأن الدهر منهن يصرع
وقوله :

ألا لا يمد الدهر كفاً بسية إلى مجتدي نصر فتقطع للزند
وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهرأ أي عبئيه أثقل
وقوله :

جذبت نداء غدوة السبت جذبة فخر صريعاً بين أيدي القصائد
وقوله :

لدى ملك من أيكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد
وقوله :

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب
وقوله :

كأنني حين جردت الرجاء له غضاً صَبَّبتُ به ماءً على الزمن
وأشبه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته ، فجعل - كما ترى - مع
غثاثة الألفاظ - للدهر أخذعاً ویداً تنقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، وجعله
يشرق بالكرام ويفكر وييسم ، وأن الأيام بنون له ، والزمان أبلق ، وجعل
للمدح يداً ، ولقصائده مزامر ، إلا أنها لا تنفخ ولا تزمز . . وجعل للأيام
ظهراً يركب ، والليالي كأنها عوارك ، والزمان كأنه صب عليه ماء ، والفرس
كأنه ابن الصباح الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القبح والهجانة والغثاثة
والبعد عن الصواب .

ومما عيب به ابن تمام من الاستعارات وليس بعيب عنده قوله :

لا تسقني ماء الملام فإنني صبُّ قد استعذبت مباء بكائي
فقد عيب وليس بعيب عندي لأنه لما أراد أن يقول : قد استعذبت ماء
بكائي ، جعل للملام ماء ليقابل ماء بماء ، وإن لم يكن للملام ماء على
الحقيقة ، كما قال الله عز وجل (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومعلوم أن الثانية
ليست بسيئة ، وإنما هي جزاء عن السيئة ، وكذلك (إن تسخروا منا فإننا نسخر
منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير
مستعمل ، فلما كان في مجرى العادة أن يقول القائل : أغلظت لفلان
القول ، وجرعته منه كأساً مرة ، وسقيته منه أمراً من العلقم ، وكان الملام مما
يستعمل فيه التجرع على الاستعارة ، جعل له ماء على الاستعارة ، ومثل هذا
كثير موجود ولا شك أننا تختلف مع الأمدي في نظرتة إلى استعارات أبي تمام

ولكنه كان مقيداً بمذهب العرب في استعاراتهم فهو يقول في وصف هذا المذهب : (وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له ، إذا كان يقاربه ، أو يناسبه ، أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لا ثقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه نحو قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعاني والاستعارات ولا المجازات ، وهو في غاية الحسن والجودة والصحة ، لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه ، وتناقل صدره للذهاب والانبعث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويتربص تصرفه ، فلما جعل له وسطاً يمتد وأعجازاً مرادفة للوسط ، وصدرأً متثاقلاً في نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله مُتمطياً من أجل امتداده ، لأنه تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه . وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له .

وممن كان له إسهام في تأصيل علم البيان على بن عيسى الرماني الدمشقي سنة ٣٨٦ هـ إذ نجده في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) يقسم الأقسام عشرة منها ما يتصل بالبيان كالتشبيه والاستعارة ، وهو يعرف التشبيه بأنه عقد أو مشاركة حسية أو معنوية موضحاً الفروق بينهما ويتكلم من حيث يرى - في رأيه - بين المشبه والمشبه به ، أما التشبيه بغير أداة فهو تشبيه النفس ، ونراه بعد ذلك يجعل التشبيه على مراتب . تشبيه شيئين تشبيهاً ، وتشبيه شيئين تشبيهاً بمعنى جمعهما والتشبيه البليغ

إخراج للغامض إلى الظاهر . ويرى أن الصفة تغلب على المشبه به لذلك انتزع منها وجه الشبه لتوضيح المعنى المراد التعبير عنه ، وتلك الصفة أي وجه الشبه إما أن تكون مما يقع عليه الحس ، أو جرت به العادة ، وهذه الأمور كلها مما يقوي الصفة ، وهناك مواطن يُحتاج فيها إلى التشبيه لتوضيح المعدوم وهو ما لا يقع في دائرة المحسوس ، لذلك يخرج به التشبيه إلى الحس ليصوره للذهن فيتم الإدراك ، ومثله التعبير عن شيء لم تجربه العادة ، فهو غير مألوف وغريب كأنه معدوم ، وذلك كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ من النوم .

فإذا جاء الرماني إلى الاستعارة عرضها بأنها (تعليق العبارة على غير ما ونسعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة) ثم أوضح الفرق بينها وبين التشبيه في خلوها من الأداة وأنها تقوم على أركان ثلاثة : المستعار ، والمستعار منه والمستعار له . وقد حلل بعض الآيات القرآنية ليشرح ما فيها من استعارات جميلة مدركاً الأثر النفسي الذي ترثه . يقول : قال الله تعالى : ﴿ وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (حقيقة (قدمنا) هنا (عمدنا) .) وقدّمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف من أمرهم . وفي هذا تحذير من الاغترار بالأفهام . والمعنى الذي يجمعهما العدل لأن العمد لإبطال الفاسد عدل ، والقدم إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدم أبلغ لما بينا ، وأما هباءً منثوراً فبيان ما قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه .)

وفي كتاب القاضي علي بن العزيز الجرجاني المتوفي سنة ٣٩٢ هـ (الوساطة بين المتنبئ وخصومه) توسع في شرح الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ ، وهو لا يزال يستخدم (البديع) بمعنى التعبير الفني الجميل فيجعل

الاستعارة والتشبيه منه ، وهو يرى أن الاستعارة (أحد أعمدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والثر) .

والاستعارة عنده إما حسنة أو قبيحة ومرد الحكم على ذلك قبول النفس أو نفورها ، وهو بذلك لا يضع قواعد لجودة الاستعارة أو رداؤها وإنما يترك ذلك للتذوق والانطباع النفسي .

ولا شك أن جهد أبي هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ في علم البيان يفوق من سبقه ممن عرضنا بحوثهم ، فهو في كتابه (الصناعتين) يصرح برغبته في الكشف عن الحدود والأقسام لوجوه البيان كما أشار إليها الجاحظ من قبل . أما فيما يخص علم البيان فقد خاض في موضوعاته فتحدث عن حد التشبيه ووجوهه المختلفة وأجود التشبيه عنده ما يقع على أربعة أوجه : إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها . ثم تحدث عن أدوات التشبيه محلاً نماذج من القرآن الكريم ومن الشعر المشور . ثم تحدث عن التشبيه القبيح وساق بعض النماذج له .

وعقد فصلاً للاستعارة فتحدث فيه عن الغرض منها ، والاستعارة المصيبة ، وفضل الاستعارة على الحقيقة لأنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة . ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة ، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة ، كما لا بد أيضاً من معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه . والاستعارة أبلغ من الحقيقة لأنها إخراج ما لا يُرى . وقد قدم أبو هلال نماذج للاستعارات من كلام القدماء والمحدثين .

ووضع أبو هلال العسكري الكناية ضمن فنون البديع ، وعقد لها فصلاً عرف بها فيه وأورد نماذج منها للجيد منها والردىء .

ونجد من علماء البلاغة الذين أسهموا في تطور علم البيان ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٦٣ هـ وذلك في كتابه (العمدة) وقد تكلم عن المجاز وكثرته في كلام العرب وهم يعدونه من مفاخر كلامهم ودليل الفصاحة ورأس البلاغة ، وهو يرى أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع . ويهتم ابن رشيق في التشبيه بمراعاة ذوق العصر ، يقول « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون - إلا القليل - عن مثلها استبشاعاً لها ، وإن كانت بديعة في ذاتها مثل قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أمر مساويك إسحل

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة وهي دودة تكون في الرمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا . . فهي كأحسن البنان ليناً وبياضاً ، وطولاً واستواءً ، ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابه الحفاء ، وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضري المولد إذا سمعت قول أبي نواس في صفة الكأس :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مداري
أو قول علي بن العباس الرومي :

أشار بقضبان من الدرِّ قُمعت يواقيت ممرّاً فاستباح عفاي

أو قول ابن المعتز :

أشْرُنْ على خوف بأغصان فِضَّة مِقْدَمَة أثمارهن عقيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود في بيت امرئ القيس ، وإن كان تشبيهه أشد إصابة . ومن هؤلاء العلماء أيضاً المشاركين في تأصيل علم البيان ابن سنان الخفاجي المتوفي سنة ٤٦٦ هـ ، وقد تناول في كتابه (سر الفصاحة) مباحث في علم البيان ، فقد تحدث عن الفرق بين التشبيه

والاستعارة وناقش العلماء السابقين من أمثال الرماني والأمدي والقاضي الجرجاني في بعض تعريفاتهم أو تحليلاتهم لنماذج من الاستعارة . وقد قسمها قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح ، فالأول ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح . والثاني إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك .

وتحدث ابن سنان عن التشبيه فقال : (هو أن يقال إن أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه ، حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة ، لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال ، وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضد حتى يكون رديء التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به) .

ونراه في حديثه عن الكناية يقول إن من حسنها أن يكنى عن الشيء في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح .

ويعد عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ من أهم البلاغيين العرب الذين أسهموا في إرساء قواعد علم البيان في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) وقد تحدث في الكتاب الأول عن أصول علم البيان من حقيقة ومجاز واستعارة وتشبيه ، وتكلم في (دلائل الإعجاز) عن الكناية وعرض أيضاً للاستعارة والمجاز العقلي ، لإثبات أن ما يطبق على العبارات الحقيقية في نظرية (النظم) يطبق على هذه الاستخدامات التخيلية .

وتنبه عبد القاهر في السببه إلى العسور المركبة فهو بقول (جملة القول أنك متى زدت في التشبيه على مراعاة رتبة . واحد أو جهة واحدة فقد دخلت في التفصيل والتركيب ، وفتحت باب التفاصيل ، ثم تملف المنازل في الفضل بحسب الصورة في استفادة قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو (دون

الجهد) . ويشير إلى التشبيه المقترن بالحركة في الهيئات قائلاً : « اعلم أن مما يزيد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات » .

وجعل عبد القاهر التشبيه نوعين : الأول أن يكون من جهة أمر بين لا يُحتاج فيه إلى تأويل ، والثاني أن يُحصل بضرب من التأويل . (و التشبيه) يطلق على النوعين ، بينما يطلق (التمثيل) على النوع الثاني ، ولهذا فالتشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

ومن الفوائد التي يراها عبد القاهر في الاستعارة الإيجاز لأنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ والإفصاح (لأنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبيته ، والمعاني الخافية بادية جليلة) ، كذلك تفيد التجسيم فهي (إن شئت أتتك بالمسي اللطيفة التي هي خبايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون) .

ونراه يقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة حسب ما تؤدي من المعاني . فالاستعارة غير المفيدة كاستعارة اسم شيء لشيء مقابله دون حصول فائدة كاستعارة الشاعر كلمة (مرسن) من أنف الناقة للمرأة في قوله :

وفاحما ومرسنا مسرجا

والاستعارة المفيدة تزيد المعنى وضوحاً وعمقاً كقول زهير :

وعرِّي أفراس الصبا ورواحله

يقول عبد القاهر (لا تستطيع أن يثبت ذواتاً أو شبه ذوات للصبا تتناولها الأفراس والرواحل في البيت على حد تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعة ، والبدر الموصوف بالحسن أو البهاء ، والسحاب المذكور بالسحاء والسماحة ، وليس إلا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل ، وفقد نزاع النفس

إليه ، وبطل فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته ، وتطرح أدواته ، وكالجهة من جهات المسير إلى الحج أو الغزو أو التجارة يقضي منها الوطر فتحط عن الخيل التي كانت تركب إليها بعورها ، ويكف عن الإبل التي كانت تحملها قطورها) .

ويهتم عبد القاهر اهتماماً كبيراً بأثر الصور البيانية في النفس فهو يقول :
(أعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها ، وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً) .

والمعاني عنده لا قيمة لها في ذاتها ، بل قيمتها في تصويرها باستخدام الخيال الذي ينقلها من المعقول إلى المحسوس يقول في ذلك : (ان أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعمّا يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالطبع) وهو يضرب مثلاً لتصوير المعاني وأثره في النفس بقول الشاعر :

فأصبحتُ من ليلى الغداة كقابض على الماء خائته فُروجُ الأصابع

(فهو قد أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب في أنه بلغ في خيبة ظنه وبار سعيه إلى أقصى المبالغ . والمشاهدة إذا كانت مستفادة من العيان ، ومنصرفه حيث تتصرف العينان ، تحرك النفس ، وتمكن المعنى من القلب) .

ويرى عبد القاهر أن الفضيلة في الاستعارة تتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنها العامي المبتذل كقولنا (رأيت أسداً ووردت بحراً ولقيت بداراً ، ومنها

الخاصي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول ، ولا يقوي عليه إلا أفراد الرجال ، كقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بينما وسالت بأعناق المطي الأباطح
وقد عرف عبد القاهر الكناية بقوله : (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه) .

وقد أعلنى عبد القاهر من شأن القيمة الفنية للكناية فهي أبلغ من الإفصاح ، والتعريض فيها أوقع من التصريح ، وقد بين أقساطها وساق أمثلة على الحسن منها والقبیح .

وقد جاء محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ فأضاف في تفسيره للقرآن المسمى (الكشاف) مزيداً من التوضيح لقواعد علم البيان وأصوله وخاصة في صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل والعقلي .

وبعد هؤلاء الأعلام جاء سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ ووضع حدوداً صارمة في كتابه (مفتاح العلوم) إذ خصص القسم الثالث من كتابه لعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثاً في الفصاحة والبلاغة وآخر عن المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية . وبعد كتاب السكاكي الصورة النهائية التي جمدت عليها علوم البلاغة العربية ، إذ أخذ العلماء من بعده يشرحون ما كتبه ، وكان ما كتبه استيعاباً لما قدمه العلماء السابقون عليه ، وتنظيماً وتحديداً وتقسيماً وتفریباً . وقد عرف السكاكي البيان بأنه (إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه) . وقد حصر علم البيان في الدلالات العقلية

فكانت مباحثه شاملة المجاز والكناية إذ ينطبق عليها تعريفه علم البيان أي إيراد المعنى الواحد بهما في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان .

أما التشبيه فلما كانت دلالتة وضعية فهو غير داخل في تعريف السكاكي ، بيد أنه وجد الاستعارة تعتمد عليه اعتماداً كبيراً ولهذا عدّه أصلاً في البيان ، وتناوله من خلال أقسامه وأغراضه من حيث طرفاه ووجهه والغرض منه وأحواله في القرب والغرابة والقبول والرفض ، وفرق بين التمثيل والتشبيه كما فعل عبد القاهر من قبل .

وتناول المجاز بوصفه (الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع) ، وهو يجعله قسمين أساسيين : مجاز لغوي في المفرد ، ومجاز عقلي في الجملة ، ثم يفرع من هذين القسمين أقساماً أخرى منها المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه وهو المجاز المرسل ، ومنها المفيد المتضمن المبالغة في التشبيه وهو الاستعارة ، وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به ، وبعد ذلك يتصل السكاكي في أقسام الاستعارة .

وفي تناوله للكناية يعرفها بأنها (ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ليتقل من المذكور إلى المتروك) ويقسمها بحسب المراد منها ثلاثة أقسام : كناية عن موصوف ، وعن صفة ، وكناية نسبة أي التي تدور على تخصيص الصفة بالموصوف .

ومن أهم شراح السكاكي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني

المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ، وهو في شرحه لم يلتزم بنص السكاكي ولكنه أضاف إليه من آرائه وآراء العلماء السابقين ، وقد أصبح كتابه (التلخيص) المحور الذي دارت عليه البلاغة العربية حتى العصر الحديث وكذلك شرحه (الإيضاح) الذي تتابعت الشروح عليه مثل (عروس الأفراح) بهاء الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ وغيره .

الفصل الثاني

التشبيه

هو أسلوب في تصوير المعنى يقوم على مقارنة شيء بآخر ، كمقارنة القلوب بالحجارة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أو مقارنة السماء بالزيت المغلي والجبال بالصفوف المنفوش في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِّ ﴾ ومقارنة الذنوب بالجبال في قوله صلى الله عليه وسلم : « يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال يغفرها الله لهم » . ومقارنة الحياة بالسراب في قول الشاعر أحمد شوقي :

وما الحياة إذا أظمت وإن خدعت إلا سرابٌ على صحراء يلتمعُ
ومقارنة الحياة بالنوم والموت باليقظة والإنسان بالخيال في قول الشاعر أبي الحسن التهامي :

فالعَيْشُ نَدْمٌ والمنِيَّةُ يَقْظَةٌ والمرء بينهما خيال سارٍ
ومن خلال هذه المقارنة التي قدمنا أمثلة لها تتمثل لنا صفة من الصفات كصفة القسوة في قلوب بني إسرائيل في الآية الأولى ، والمنظر الهائل المرعب في صفة السماء يوم القيامة . والحالة الهشة المتطايرة التي تكون

عليها الجبال في هذا اليوم الرهيب في الآية الثانية ، وعظم ذنوب بعض المسلمين كما في الحديث الشريف ، وتكشف الحياة الدنيا عن لا شيء كالسراب الذي يخدع الظامىء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وذلك المعنى في بيت شوقي . وفناء الحياة الدنيا وقصرها ، وبقاء الحياة الآخرة ، والمرور السريع للإنسان ما بين حياته الدنيا والآخرة كما تتمثل في بيت التهامي :

وفي أسلوب التشبيه الذي يقوم على المقارنة - كما بينا - نجد موضوعاً يوصف ، سواء أكان هذا الموضوع شيئاً محسوساً أم معنى يُدرك بالفكر ، وهذا الموضوع لا يوصف وصفاً مباشراً ، بل يُقرن بشيء آخر تكون هذه الصفة فيه أقوى وأوضح ، وأقرب إلى إدراك السامع أو القارئ وتجربته .

وهناك أدوات تدل على التشبيه :

منها ما هو حرف : الكاف وكان .

ومنها ما هو اسم : مثل ، شبه ، شبيه ، وما في معناها مما يدل على المماثلة أو المشابهة أو المضاهاة أو المحاكاة .

ومنها ما هو فعل : حسب ، ظن ، خأل ، وما في معناها مما يدل على المماثلة أو المشابهة أو المضاهاة أو المحاكاة .

غير أن هذه الأدوات ليست عنصراً أساسياً في التشبيه وإنما قد تذكر في التشبيه ، كما نجد في الأمثلة الثلاثة الأولى وقد يتحقق بدونها كما نجد في بيت التهامي .

وتبين مما تقدم أن التشبيه أسلوب أدبي يدل على مشاركة أمر لآخر في صفته وأركانه أو عناصره أربعة :

١ - مُشَبَّه : وهو الموضوع المقصود بالوصف .

٢ - مشبَّه به : وهو الشيء الذي يُجعل نموذجاً للمقارنة وتتحقق فيه الصفة

أقوى وأوضح وأقرب إلى إدراك السامع أو القارئ وتجربته .

٣ - وجه الشُّبه : وهو الوصف الذي يستخلص من المقارنة بين المشبه والمشبه به .

٤ - أداة التشبيه : وهي الكلمة التي تدل على معنى التشبيه وقد تكون حرفاً أو اسماً أو فعلاً .

غير أن الركنين الأساسيين في التشبيه هما المشبه والمشبه به، وإذا اقتصر التعبير عليهما سُمِّي التشبيه (بليغاً) أو (مؤكدأ)، فإذا ذكرت الأداة سُمِّي التشبيه (مرسلاً) .

وهذه التسمية الاصطلاحية لتعريف أنواع التشبيه لا علاقة لها ببلاغته أو جماله، فقد يذكر وجه الشبه والأداة وتتحقق في التشبيه روعته وأثره الجميل ففي الآية الأولى شُبِّهت قلوب بني إسرائيل بالحجارة وهي مثال في القسوة ، ولكن الآية الكريمة وصفت قلوبهم بأنها أشد قسوة وهي الصفة المشتركة بين القلوب والحجارة ، وقد دلت الآية على ذلك بأن الحجارة لا تثبت على حال واحدة من الصلابة ، أما قلوب بني إسرائيل فهي ثابتة على ذلك بدليل تمام الآية (وإنَّ من الحجارة لما يتفَجَّر منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يشققُ فيخرج منه الماء وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

وقدرة الأديب على الصياغة الفنية المحكمة في تعبيره عن معانيه لا يؤثر فيها استخدامه التشبيه ، فقد يقع المشبه به خبيراً لمبتدأ كما نجد في بيت شوقي الذي استخدم فيه أسلوب القصر ، وكما نجد في التشبيهات الثلاثة في بيت التهامي . وقد يكون خبيراً لأحد النواسخ كما نجد في بيت كعب بن زهير :

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وقد يكون في موضع الحال كما في قول الشاعر :

بَدَتْ قَمراً ومالت خطوط بانٍ وفاخت عنبراً ورنّت غزالاً
وقد يقع المشبه به مصدراً مبيناً لنوع المشبه كما في قول الشاعرة
الأندلسية :

حَلَلْنَا دَوْحَهُ فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وقد يضاف المشبه به إلى المشبه كما في قول التهامي :

ثوبُ الرِّياءِ يَشْفُ عما تحته فإذا التَحَفَّتْ به فإنك عارٍ
ومن الطبيعي أن يختلف طرفا التشبيه أو يتفقا من حيث هما أمران
حسيان أو معقولان والحسي هو ما يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة :
البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وذلك حسب ما يراد من
التشبيه ، ويدخل في الحس (الخيالي) كما في قول الشاعر :

وكانَ مُحَمَّرٌ الشقيق إذا تصوّب أو تصعد
أعلامٌ ياقوت نُشِرْنَ على رماح من زبرجد

فالمشبه به يتخيله الشاعر إذ لا توجد في الحقيقة أعلام من ياقوت ولا
رماح من زبرجد ولكنه أراد أن يشبه زهر الشقيق الأحمر بالياقوت وساقه
الخضراء بالزبرجد وهي كلها أمور حسية تدرك بالبصر .

أما العقلي فهو الذي لا يدرك بالحواس ، بل يدرك بالعقل ، ويدخل
في المعقول ما يسمى (الوهمي) وهو ما ليس مدركاً بإحدى الحواس ، مع
أنه لو أدرك لم يُدرك إلا بها كما في قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ووجه الشبه في الأمثلة التي قدمناها صفة واحدة كالقسوة في تشبيه
القلوب بالحجارة في الآية الكريمة الأولى ، وقُدرة اللون في تشبيه السماء

بالمهل في الآية الثانية ، وربما تصورنا عدة صفات في وجه الشبه - وهذا من سمات الجمال في التشبيه - ولكنها صفات مستقلة بعضها عن بعض كما في تشبيه الجبال بالعهن أي الصوف المنفوش ، فقد تفهم من ذلك صفة التفكك أو الخفة ، مع اختلاف ألوان الجبال كاختلاف ألوان الصوف .

غير أن هناك نوعاً من التشبيه نجد فيه وجه الشبه حالة مركبة من جملة صفات يصعب فصل بعضها عن بعض ، أو لا يتم التشبيه إلا بها مجتمعة ، والغالب أن يكون وجه الشبه في هذا النوع من التشبيهات عقلياً ، ويسمى هذا النوع (التشبيه التمثيلي) فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ . فوجه الشبه هنا صورة مركبة من النماء والجمال والزينة ثم اليبس والجفاف والانحلال . كذلك نجد في قول الشاعر :

كأن مثار النفع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
فوجه الشبه فيه مركب من لون أسود يتحرك فيه شيء أبيض لامع ، ويستحيل علينا أن نتصور التشبيه منفصلاً في صفاته بحيث نقول إن مثار النفع يشبه الليل في السواد ، وأسيافنا تشبه الكواكب في البياض ، بل لا بد أن نفهم التشبيه من تداخل اللونين ووجود حركة في هذا البياض هي حركة السيوف في المشبه وحركة هوى الكواكب في المشبه به .

ونجد في قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) تشبيهاً لجماعة المسلمين بالجسد ، والمشبه والمشبه به مفردان غير مركبين ولكن وجه الشبه مركب من حالة الترابط والتكافل التي

تجعل الأجزاء كلها تعمل متساندة حتى إذا طرأ خلل على جزء واحد منها
تأثرت به سائر الأجزاء .

ويقول ابن المعتز :

أصبرُ على مَضضِ الحسودِ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فالنار تَأْكُلُ نَفْسَهَا إن لم تَجِدْ ما تَأْكُلُهُ

فوجه الشبه هنا مركب إذ أن ترك الحسود والصبر على المعاناة منه
حكمة تتمثل في النهار التي يستعر لهيبتها وتسبب الأذى ، لكنها إذا لم تمتد
بالحطب خبا أوارها وانطفأت . وقد يأتي التشبيه في التعبير الأدبي في غير ما
قدمناه من صور التشبيه بحيث يوضع المشبه بإزاء المشبه به ، بل يلمحان في
التركيب ويفهم التشبيه من سياق الكلام وهذا النوع من التشبيه يستخدم ليفيد
بأن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن ، ويتم هذا التشبيه عادة بجملتين أو
أكثر ، ويطلق عليه اسم (التشبيه الضمني) وذلك كما في قول ابن الرومي :

عدوُّك من صديقك مُستفادُ فلا تستكثرنَّ من الصُّحابِ
فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه يحُول من الطعام أو الشرابِ

فإن الرومي يشبه تحول الصداقة إلى عداوة بتحول الطعام والشراب إلى
أسباب للمرض ، ولكنه لم يعبر عن هذا المعنى دفعة واحدة كما يقتضى
التشبيه الصريح ، فلم يقل إن بعض الأصدقاء يتحولون إلى أعداء ، كما
يتحول بعض الطعام والشراب إلى أذى للجسم ، وإنما دل على كل من ركني
التشبيه بجملته مستقلة ، وتركنا نفهم معنى التشبيه من البيتين :

ويقول أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرفُ طيبُ عَرَفِ العودِ

فالشاعر هنا يقول إن الحسود الذي لا يفتأ يردد الحديث عما أفاء الله من خير على الإنسان بغرض إزالة النعمة إنما هو في الحقيقة ينشر محاسن هذا الإنسان دون أن يدرك ، مثله في ذلك مثل النار التي تنشر الرائحة الطيبة للعود ، ولولا اشتعالها لظهر لنا العود جافاً ولم نعرف قيمته . وقد وضع الشاعر طرفي التشبيه في جملتين مستقلتين ، ولكننا أدركنا ما بينهما من علاقة تشبيهية من السياق .

ويقول ابو فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ
وواضح هنا أن الشاعر يقارن بين حالتين : الأولى إحساس قومه بالحاجة إليه في الشدائد والثانية : إحساس الناس بالحاجة إلى ضوء القمر في الليلة المظلمة ، فالتشبيه هنا ضمنى لأننا أدركناه من الصياغة التعبيرية للمعنى الذي أراده الشاعر .

ولما كانت الصفة المراد إثباتها أقوى وأظهر في المشبه به منها في المشبه ، وهذا أمر طبيعي فالمشبه به لم يأت في الكلام إلا لتوضيح صفة في المشبه ، بدأ الشعراء والكتاب يميلون إلى الإغراق في تزيين الكلام وتوشيته بألوان البيان والبديع ، وكان من مظاهر ذلك الإكثار من التشبيهات والتماس الغريب منها ، ومن وسائل الإغراب في التشبيه أنهم قلبوا وضع المشبه والمشبه به ، فجعلوا المشبه أقوى في الصفة أو أقرب إلى الإحساس والعادة من المشبه به ، وكأنهم يريدون إيهام القارئ أو السامع بأن المشبه قد بلغ من التمكن في الصفة أو الاشتهار بها مبلغ المشبه به وأكثر ، كقول أبي تمام :

وأحسن من نَوْرِ يَفْتَحُه النندي بياض العطايا في سوار المطالب

فالأصل أن يشبه بياض العطايا ويقصد به الكرم منور الأزهار ولكنه قلب

التشبيه ، ولهذا يسمى هذا النوع من التشبيه (التشبيه المقلوب) وكما في قول القاضي التنوخي يصف قدوم الشتاء :

انهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلمٌ وإنصافٌ قد اتفقا فالظلم في الأصل لكي نقربه إلى الأفهام نشبهه في سواده وما يحدثه في النفس من حزن وألم بالفحم ، والعدل نشبهه في ارتياح النفس إليه بالنور والإشراق المنبعث من النار ، ولكن الشاعر قلب التشبيهين .

وقد أدرك المحدثون ما في التشبيه المقلوب من تصوير لخلجات النفس الإنسانية فاستخدموه استخداماً واسعاً في أشعارهم وكتاباتهم ، ومن ذلك ما كتبه مصطفى صادق الرافعي في فصل له بعنوان (البحر) يقول فيه : (أعرف للبحر في نفسي كلاماً ، فهو يوحى إلي أن تجدد تجدد في آمال قلبك كامواجي لثلا تمل فتياس ، وتحرك تحرك في نزعات نفسك كتياري لثلا تركن فتنفسد ، وتوسع توسع في معاني حياتك كأعماقي لثلا تمتلئ فتعكر ، وتبخّر تبخّر في جوفك الحر كرياحي لثلا تسكن فتهمد) .

ومن الأمثلة المختلفة للتشبيه التي قدمناها يتمثل لنا التشبيه عنصراً فنياً قوياً من عناصر الجمال في التعبير يعتمد على قوة التصوير والتمثيل والمحاكاة والتشخيص والتجسيم ويدل على اتساع الخيال وسموه وما قد يكون لدى صاحبه من مواهب تتسع به في القول وتعمق الأشياء . وهو نوع من الوصف ليس عادياً فهو يقرب الموصوف والمشبه (من الحواس أو من تجربة السامع ، أو يربطه بشيء هو أقوى منه في الصفة ويمثل الغائب الذي لا يقتاد بالظاهر المعتاد . ولهذا كان من أهم أغراضه إيضاح المعنى وبيان المراد ، فإذا تأملنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) أدركنا أن الفرض أن لا يتعلق الإنسان بالدنيا ويرتبط بها ، بل يجعل صلته مثل الغريب الذي لا ارتباط له في بلاد الغربة أو ابن السبيل الذي لا

علاقة له بالمكان إلا بمقدار عبوره . وقد أكثر البلاغيون قيمة هذا الفرض في التشبيه فيقول أبو هلال العسكري : (التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه) .

وقد يكون المقصود من التشبيه أمر آخر وهو بيان مقدار الصفة في المشبه كما تتبين في قوله تعالى ﴿ مثل الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبَت سبعَ سنابلٍ في كُلِّ سنبلَةٍ مائة حبةٍ ﴾ فالأموال التي ينفقها المؤمنون في سبيل الله تتميز بصفة وهي أنها تعود عليهم بأضعاف أضعافها ، وقد صور التشبيه هذا الجزاء الوافي الجزيل تصويراً يقرب مقداره من الدهن .

وقد يكون الغرض من التشبيه تقرير الصفة ذاتها وتأكيداها في النفس بحيث تتمثلها تمثلاً قوياً ، ونرى ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وقد تكون الصفة التي يقررها التشبيه حسية محضة كما في قول امرئ القيس يصف الأطلال :

ترى بعر الأرام في عرصاتِها وقيعانها كأنه حبُّ فلفل
فهنا نلاحظ في التشبيه عدة صفات وليست صفة واحدة ، فنجد في المشبه به صفات الاستدارة والسواد والصلابة والصفة ، ومن هنا اكتسب التشبيه قوته في إيجازه . وقد يكون الغرض من التشبيه تحسين المشبه أو تقييده كما في قول البحترى :

عَيْرْتَنِي المَشِيبَ وهي رَمَنه في عِذارى بالصدِّ والاجتناب
لا تَرِيه عاراً فما هو بالشيب ولكنّه جلاء الشباب
وبياضُ البازيِّ أصدقُ حُسناً إن تأملتِ من سواد الغراب
فقد شبه البحترى المشيب ببياض البازي ليحسنه ويجمله ويوهم

القارئ أو السامع بحبه للمشيب واعتزازه به ، وشبهه سواد الشعر الذي يدل على الشباب بسواد الغراب ليقبحه ويعيبه ويوهم سامعه بأنه غير راغب فيه .

وقد يأتي الأديب بتشبيه يثير نوعاً من الغرابة أو الطرافة بما يرسمه من صورة غريبة كالتي رسمها الشاعر ابن سعيد في قوله :
وَالنَّخْلُ أَمْثَالُ الْعَرَائِثِ لُبْسُهَا خَزٌّ وَحَلِيَّتُهَا قَلَائِدُ مِنْ ذَهَبٍ
فهو يشبه النخل بالعرائس فيعقد بذلك مقارنة بين طرفين بعيدين ، ولهذا كان جمال التشبيه في محاولة اكتشاف جوانب هذا التشابه الغريب فنجد الشاعر قد ربط بين سعف النخل الأخضر والحريز ، وبين الطلع الأصفر وقلائد الذهب .

وقد يأتي التشبيه لإثبات قضية وخصوصاً إذا كانت قضية لا يسهل التسليم بها ، كما نرى في قول ابن الرومي :

فَدَعُ عَنْكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٌ يُعَافُ وَكَمْ قَلِيلٌ مُسْتَطَابٌ
وَمَا أَلْجَجُ الْمَلَحَ مُرَوِّياتٍ وَيُلْغِي الرِّيَّ فِي النُّطْفِ الْعَذَابِ

فالناس عادة تطلب الكثرة من كل شيء وتمتدحها ، ولكن الشاعر يقرر أن العبرة ليست بالقلة أو الكثرة، ولكي يثبت هذه القضية التي لا يسلم بها الناس عادة ، شبه الكثرة بماء البحر المالح ، والقلة بجرعات الماء العذب عند الظمان ، فأثبتت قضيته بهذا التشبيه .

ومن أبرز عيوب التشبيه ألا تكون الضمفة المراد نسبتها إلى المشبه ظاهرة في المشبه به ، فهذا ينقض الغرض الأصلي من التشبيه . ومما يستطرف من أخطاء الشعراء في التشبيه ذلك البيت الذي رواه المبرد في كتابه (الكامل) :

بل لورأتني أخت جيراننا إذ أنا في الدار كأنني جمارٌ
أراد أن يصف نفسه بالقوة وسلامة البدن ، فشبه نفسه بالحمار . ولو

قارنا هذا البيت بقوله تعالى في وصف اليهود الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يعملوا بما فيها بالحمار الذي يحمل فوق ظهره كتباً ، فلا تعدو أن تكون بالنسبة إليه حملاً ثقيلاً عليه . وجدنا الفرق هائلاً بين التشبيهين في الدلالة على الغرض وقوة التصوير وبلوغ الغاية من التشبيه .

وفي التشبيهات المصيبة الجافية عن الذوق لا ينفع التصريح فيها بوجه الشبه ليخفف من سوئها كما نرى في قول الشاعر وهو يمدح :

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

وقد يعيب التشبيه أن ينسب إلى المشبه به وصف غير معهود فيه وليس من طبيعته أو من وظائفه الدائمة ليحمل هذا الوصف بعد ذلك على المشبه فتقطع صلة المقارنة أو المشابهة كما نجد في قول الشاعر مادحاً :

كانت بنو غالب لأمتها كالغيث في كل ساعة يكف
فليس من المألوف أن يسقط المطر في كل ساعة .

وربما كان الوصف في كل من المشبه والمشبه به صحيحاً إلا أنهما لا يتلاءمان ، فيشعر القارئ أو السامع بتقصير العبارة عن المعنى ، كالذي روي من أن ابن شرف القيرواني أنشد ابن رشيق قوله :

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندم

وقال له : هل سمعت هذا المعنى : (وكأنما هو معجب بما اتفق له من عجب التشبيه) فقال ابن رشيق : سمعته وأخذته أنت فأفسدته ، أما الأخذ فمن قول النابغة الذبياني :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته لذي العر يكوى غيره وهوراتع

وأما الإفساد فلأن سبابة المتندم أول شيء يتألم منه ، وهذا بخلاف بيت

النابعة فإن المكوي من الإبل يتألم وما به عُرُّ البتة ، وصاحب العر لا يألم جملة .

فابن رشيقي يعيب بيت ابن شرف لأن المشبه به لا يطابق المشبه ، فالمشبه هو البريء المعاقب ، والمشبه به هو سبابة النادم التي يعصها حين يشعر بما وقع فيه من خطأ والسبابة هي بعض الإنسان المخطيء ، فكيف لا يكون عقابها عقاباً له ؟ أما بيت النابعة ففيه فصل واضح بين المذنب والمعاقب في كل من المشبه والمشبه به ، فلذلك تطابقا فوقع التشبيه موقعه .

ولا شك أن التشبيه وهو أحد عناصر علم البيان تؤثر فيه عوامل كثيرة كالبيئة والزمن والمستوى الثقافي ودرجة التخيل وغير ذلك من مؤثرات ، وقد لاحظ مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ أداب العرب) أن المولدين من الشعراء لم يلتزموا سنن العرب في الوصف ، بل قلبوه إلى التشبيه ، وبينهما فرق عند العرب ، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، والتشبيه مجاز وتمثيل لأنه مبني على أن يوقع بين الشئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما بها ، إذ لا بد أن يكون بين المشبه والمشبه به اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل منهما بصفتها فهو يدخل في الوصف وليس في الحقيقة ، ومن أجل ذلك بالغ المولدون في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد ، وكان هذا الشيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة .

وما يقوله الرافعي هو في الحقيقة ما يلتزمه العرب في عمود الشعر ، والتجديد الذي حدث في القرن الثاني في الصيغة يمكن عده خروجاً على ذلك العمود ، ذلك أن إدراك الشعراء للعلاقات بين الأشياء قد تطور تطوراً كبيراً بالنسبة لما كان عليه في العصر الجاهلي ، فتشبيهه بشار مثلاً لحديث المرأة اللطيف ذي الأنين بقطع الرياض المتنوعة الأزهار في قوله :

وكأن رجع حديثها قَطَعُ الرياض كُسين زهرا
لا يركز على تفسير البيئة فقط ، ولكنه يركز أولاً على تغيير إدراك
العلاقة بين الأشياء ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يستطيع الوصول إلى إيجاد مثل
العلاقة بين حديث المرأة وقطع الرياض ، إذا كان إدراكه في هذه الناحية
محصوراً في العلاقات المتشابهة المتجاورة أو القرية من الحقيقة ، فإن بعد
هوناً ما عن هذا المنطق فهو لا يتعدى بيئته أو الأساطير الشائعة كما رأينا في
قول امرئ القيس (ومسنونة زرق كأنياب أغوال) .

وهناك ناحية أخرى نراها في التشبيهات عند المجددين من الشعراء وهي
أن المحدثين قد أتبح لهم من الثقافة وقوة التمثيل والتخيل ما يجعلهم قادرين
على التوسع حتى في الصور القديمة الجاهلية وإضافة جزئيات كثيرة إليها
ومحاولة تشخيص الصورة وتجسيمها .

ولا شك أن القيمة الفنية للتشبيه من حيث عمق المعنى المراد تصويره
واتساع رؤيته وجدته وبعث الحياة في جزئياته وقدرته على التخيل أهم بكثير
من حشد التشبيهات والإشارة بتعددتها في البيت الواحد ، فقد كان إعجاب
بعض البلاغيين كبيراً ببيت امرئ القيس الذي يقول فيه :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
لأنه شبه شيتين بشيتين مفصلاً .

كما أعجب بعضهم ببيت المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

لأنه شبه ثلاثة أشياء بثلاثة أخرى .

أما بيت الشاعر :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

فقد بلغ الغاية عند بعض البلاغيين لأنه شبه خمسة أشياء في بيت واحد ، حتى إن أبا هلال العسكري يقول (لا أعرف لهذا البيت ثانياً في أشعارهم) . مع أن القيمة الفنية فيه محدودة .

إن الوظيفة الحقيقية للتشبيه تتجاوز كونه وسيلة للتقريب أو التعريف بشيء مجهول فإذا قلنا عن شيء شديد السخونة إنه كالنار لم نكن بعيدين عن الحقيقة بل إن (الرماني) سمى مثل هذا النوع (تشبيه حقيقة) .

وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة للتشبيهات ذات القيمة الفنية العالية فمن ذلك قوله تعالى في تصوير الصدقة : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

فالصدقة أو بذل المال في وجوه الخير له صورتان تشبيهيتان متقابلتان بحسب المتصدقين فالذين يتبعون صدقتهم بالإيذاء نتيجة حبههم للتظاهر ورقة إيمانهم يشبهون في عملهم الحجر الصلب الذي غطته طبقة خفيفة من تراب فنزل عليه المطر الغزير الذي يخصب الأرض ويمرعها ولكنه لم يفعل شيئاً بالحجر إلا أن أزال عنه التراب ليعود صلداً أملس . أما عمل المؤمنين في صدقاتهم فيشبهه بالجنة فوق ربوة عالية ينزل عليها المطر المغدق فتزداد خصوبتها وتمرع ، بل إنها ليست بحاجة إلى المطر الغزير فيكفيها القليل لتزدهي بخضرتها .

ولا شك أن صدور التشبيه عن تجربة فنية صادقة يشيع في صورته قوة

الشعور وحرارة الوجدان ، ونرى ذلك واضحاً في صور الشعراء الرمانتكين خاصة ، فإذا تأملنا قصيدة (المساء) لخليل مطران وجدنا صورته التشبيهية قد صاغها بإحساسه الحزين فاكستت قتامة وتغير وجه الطبيعة الذي نعرفه ، يقول :

والبحر خفاق الجوانب ضائق	كمدا كصدري ساعة الإساء
تفشى البرية كدرة وكأنها	صعدت إلى عيني من أحشائي
والأفق معتكر قريح جفنه	يغضبي على الغمرات والأقذاء
يا للغروب ومابه من عبرة	للمستهام وعبرة للرائي
أو ليس نزعاً للنهار وصرعة	للشمس بين مآتم الأضواء
أو ليس طمساً للتعين ومبعثاً	للسك بين غلائل الظلماء
أو ليس محواً للوجود إلى مدى	وإبادة لمعالم الأشياء

الفصل الثالث

المجاز

الدلالة اللغوية لكلمة (المجاز) تعني الانتقال من مكان إلى مكان ، أو ذات الشيء الذي نقل من موضع إلى آخر ، ومن ثم الانتقال من معنى إلى معنى آخر ، وهذا المعنى الذي انتقلت منه الكلمة هو الذي يسميه البلاغيون (الحقيقة) ، فكأن (المجاز) عدول عنها وانتقال من دلالة إلى أخرى .

ويعرف ابن سنان الخفاجي الحقيقة بقوله (اللفظ الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد به ما وضع لإفادته) .

ويعرفها عبد القاهر الجرجاني بقوله (كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح ، وإن شئت قلت : في مواضعه وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره . . . مثال ذلك كلمة (الأسد) تريد به (السبع) فإنك قد أردت به ما وضعه الواضع لهذه الكلمة ، وهو الحيوان المفترس ، ولا يحتاج أن يتصور له معنى ينتقل منه إلى السبع من أجل صلة تجمع بينهما .

وقد سبق لنا أن بينا أن (المجاز) استخدم عنواناً في كتب المتقدمين كمجاز القرآن لأبي عبيدة ولكنه لم يكن يعني (المجاز) بالمعنى الاصطلاحي البلاغي ، وقد تنبه إلى ذلك ابن تيمية في (كتاب الإيمان) فقال (أول من

عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية .)

ويحدد عبد القاهر الجرجاني المجاز بأنه (كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول) ، ويقول أيضاً (والغرض المقصود بهذه العبارة أعني قولنا المجاز أن تبين أن لفظ أصلاً مبدوءاً به في الوضع ومقصوداً ، وأن جريه على الثاني إنما هو على سبيل النقل إلى الشيء من غيره) .

ومن الواضح أن التفرقة بين الحقيقة والمجاز في اللغة ليست أمراً ميسوراً لأن دلالات الألفاظ في اللغة متغيرة ، وقد يكون استعمال الكلمة مجازياً ثم يشيع ويصبح مألوفاً فيتحول إلى استخدام حقيقي ، والأقرب الاعتماد على العرف السائد والاستخدام العام للكلمة . ويرى النقاد المحدثون الاعتماد أيضاً على الانطباع الذي تتركه الكلمة في النفس من حيث الإحساس بالدهشة إزاءها فكان (المجاز) في (علم الدلالة) الحديث نوع من التغير الدلالي فهو لا يتسم بالثبات ، بل يرتبط بالمكان والزمان .

وقد فطن علماؤنا العرب إلى التغير الدلالي وانتقال المجاز إلى الحقيقة وصعوبة التفرقة بين ما هو (حقيقي) وما هو (مجاز) ويقول السيوطي في كتابه (المزهر) : « اعلم أن الفرق بين الحقيقة والمجاز لا يعلم من جهة العقل ولا السمع ، ولا يعلم إلا بالرجوع إلى أهل اللغة ، والدليل على ذلك أن العقل يتقدم على وضع اللغة ، فإذا لم يكن فيه دليل على أنهم وضعوا الاسم لمسمى مخصوص امتنع أن يعلم به أنهم نقلوه إلى غيره ، لأن ذلك فرع العلم بوضعه ، وكذلك السمع إنما يرد بعد حصول المواظبة وتمهيد التخاطب واستمرار الاستعمال وإقرار بعض الأسماء فيما وضع له واستعمال

بعضها في غير ما وضع له ، فيمتنع لذلك أن يقال إنه يعلم به أن استعمال أصل اللغة لبعض الكلام هو في غير ما وضع له لامتناع أن يعلم الشيء بما يتأخر عنه .»

ويحدد بعض الباحثين التطور الدلالي والانتقال من المجاز إلى الحقيقة في صور أربع :

أولاً : أن يغلب استعمال اللفظ في معنى على سبيل المجاز لعلاقة المشابهة أو غيرها حتى يصير المعنى المجازي هو الذي ينساق إليه الذهن عند إطلاق اللفظ . وذلك مثل كلمة (الفصاحة) فإن معناها الأصلي صفاء اللب وذهاب رغوته ، ثم شاع استعمالها في صفاء القول وحسن بيانه لعلاقة المشابهة بين المعنيين حتى أصبح المعنى المجازي هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه .

وثانياً : أن يغلب استعمال اللفظ الموضوع في الأصل لمعنى كلي يتناول عدة جزئيات في جزئي خاص من هذه الجزئيات حتى يصير هذا المعنى الجزئي هو المتبادر منه عند الإطلاق وذلك مثل كلمة (الرث) فإن معناها الأصلي الخسيس من كل شيء ، ثم غلب استعمالها في الخسيس مما يلبس ويفرش حتى أصبح هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الذهن عند إطلاقه .

وثالثاً : أن يغلب اللفظ الدال على معنى في مدلول عام على طريق التوسع حتى يصير هذا المعنى العام هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه وذلك مثل لفظ (البأس) فإن معناه الأصلي (الحرب) ، ثم غلب استعماله في كل شدة حتى أصبح هذا المعنى الهام هو المتبادر إلى الذهن .

ورابعاً : أن ينقل اللفظ نقلاً مقصوداً من معناه الأصلي اللغوي إلى

معنى اصطلاحى لعلاقة بين المعنيين فلا ينتجه الذهن عند استخدامه إلى غير معناه الجديد ومن ذلك ألفاظ : الصلاة والصوم والزكاة عند الفقهاء ، والفاعل والمفعول والظرف والجار والمجرور والحال والتمييز عند النحاة وما إلى ذلك .

وقد رأى ابن جنى وتابعه في ذلك علماء آخرون أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة . ورأى آخرون إنكار المجاز وجدوا الكلام كله ضرباً من الحقيقة ، وكان هم أصحاب هذا الرأي نفي وقوع المجاز في القرآن الكريم وحجتهم في ذلك أن المجاز كذب والكذب محال على الله تعالى ، وأن الألتجاء إلى المجاز عجز عن التعبير بالحقيقة ، والعجز محال على الله تعالى . بيد أن صراحة هذا الاتجاه وصدوره عن المنطق والاستدلال العقلي ينكر الإعجاز البياني في القرآن ، والمجاز قمة التعبير البياني ويستحيل تقويمه على أساس الكذب والحقيقة .

ولا شك في وجود علاقة بين المعنى المؤلف والاستعمال الجديد للكلمة الذي غير هذا المعنى المؤلف . وقد أدرك علماء البلاغة العربية تنوع هذه العلاقة وانقسامها إلى قسمين :

الأول : المجاز العقلي ويكون في الإسناد ، أي في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هوله .

الثاني : المجاز اللغوي وتحكمه علاقتان : الملاسة والارتباط بين المعنيين ويسمى المجاز المرسل ، والعلاقة الثانية المشابهة بينهما ويسمى الاستعارة .

المجاز العقلي

يعد عبد القاهر الجرجاني من البلاغيين الأوائل الذين أفردوا هذا النوع من المجاز بالتحديد وفصل فيه القول وسماه (المجاز الحكمي) ويقصد به المجاز الذي يكون في الكلمة ذاتها وفي اللفظ نفسه ، بل إن (التجوز فيه يكون في حكم يجري على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصوداً في نفسه ومراراً كقولهم : (نهارك صائم ، وليك قائم) وقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) ، فأنت لم تجوز في نفس (صائم وقائم) ولكن في أن جعلتهما خبرين عن النهار والليل ، وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت) نفسها ولكن في إسنادها إلى التجارة ، فإنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته ، فلم يرد بصائم غير الصوم ، ولا بقائم غير القيام ولا بربحه غير الربح .»

فكأن المجاز العقلي كما صوره عبد القاهر في النص السابق من كتابه (دلائل الإعجاز) واقع في الإسناد لأن النهار في الإلف العادي لا يصوم ، والليل لا يقوم والتجارة لا تربح وإنما نقل ذلك كله من الإنسان .

ولا شك أن المجاز العقلي له أثر كبير في مجال التعبير الأدبي من حيث

قوة التشخيص والبعد عن المباشرة ، وقد أدرك عبد القاهر هذا الأثر فقال إن العاقل لا يشتبه عليه أن ليس حال المعنى في قوله (نام ليلي) كحاله إذا تركت المجاز وقلت (فتمت في ليلي) ، ومن الذي يخفي عليه مكان العلو وموضع المزية بين قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) وبين أن يقال (فما ربحوا في تجارتهم) .

ويقول في بيان هذا الفرق في الأثر الأدبي بين الحقيقة والمجاز العقلي : وإذا أردت أن تزداد للأمر تبيناً فانظر إلى بيت الفرزدق :

يحمي إذا اخترط السيوف نساءنا ضَرَبُ تطير له السواعدُ أرعل
وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطلاوة ، ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل : نحمي إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل ، ثم أسبر حالك ، هل ترى مما كنت تراه شيئاً .

عبد القاهر هنا يوازن بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي ، فلو قال الشاعر في الحقيقة إننا نحمي نساءنا إذا ما سللنا السيوف بضرب شديد الطعن تطير له السواعد ، لم يكن ذلك من التعبير البياني الجميل ، ولكن الشاعر حين أسند حماية النساء إلى الضرب نفسه ارتفعت القيمة الغنية للتعبير ، ولا شك أيضاً أن طيران السواعد تعبير مجازي جميل فنقول عن الإلف والعادة ، وقد شارك في تصوير هول المعركة تصويراً خيالياً رائعاً ، وإن لم يكن من المجاز اللغوي الذي نتحدث عنه لوجود علاقة مشابهة فيه . وقد عرف السكاكي المجاز العقلي بقوله : (هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بواسطة وضع كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفي الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة ، وهزم الأمير الجند ، وبني الوزير القصر) وهو يعني بذلك أن هؤلاء الفاعلين لم يقوموا بأنفسهم بأداء هذه الأفعال ، فالربيع لا ينبت البقل ولا الطبيب يشفي

المريض ، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله جل وعلا ، والخليفة لا يكسو الكعبة بنفسه ، وإنما الصنّاع المختصون بأمر منه ، ولا الأمير يهزم الجند بنفسه بل يقوم جنوده بأداء هذه المهمة ، ولا الوزير يبني القصر بنفسه ، بل البناؤون .

ولكن لا يلبث السكاكي أن ينكر وجود ما يسمى بالمجاز العقلي ويرى عده استعارة مكنية مع وجود فارق أساسي بين المجاز العقلي والاستعارة قد بيناه من قبل وهو أن العلاقة بين المعنى المألوف والاستعمال الجديد في الكلمة تحكمها المشابهة في الاستعارة وهي ليست كذلك في المجاز العقلي الذي يفيد إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، كما بيناه في الأمثلة السابقة .

وأصاب الخطيب القزويني في تعريفه المجاز العقلي بقوله : (هو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول) ، ثم فصل القول في هذه الملابس ، أو ما نسميه أنواع العلاقة في المجاز العقلي .

واتجه القزويني اتجاهاً مغايراً للبلاغيين السابقين بعده المجاز العقلي وهو مجاز بالإسناد داخلاً في علم المعاني دون علم البيان قائلاً : إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف علم البيان .

ولا نرى صحة ما ذهب إليه القزويني فالمجاز العقلي جزء من المجاز في أصله ومعناه ولا ينفصل عن علم البيان .

أنواع العلاقة في المجاز العقلي

إن العلاقة بين إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له كما بينا في المجاز العقلي تعدد أنواعها كما يأتي :

١ - السببية : وهي إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي لأن المسند إليه كان سبباً في حدوث الفعل ، ومن هذا النوع قوله تعالى : (يذبح أبناءهم) فنسبة الفعل إلى فرعون على المجاز لأنه ليس الفاعل الحقيقي ، ولكنه الأمر بهذا الفعل فهو سببه . وكذلك الشأن في قوله تعالى : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ ففي إسناد بناء الصرح إلى هامان وزير فرعون مجاز عقلي علاقته السببية لأن هامان لم يبن الصرح بنفسه ولكنه كان سبباً في بنائه حين أمر عماله بهذا البناء .

٢ - الزمانية : وهي إسناد آخر للزمان لمشابهته الفاعل الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما وذلك في مثل قولنا : يومه سعيد وليله شقي ونهاره حزين فالיום لا يكون سعيداً على الحقيقة ولا يشقى الليل أو يحزن النهار ولكن النسبة الحقيقية للإنسان ، وتتضح لنا هذه العلاقة أيضاً في قوله تعالى (يوماً يجعل الولدان شيباً) فقد نسب الفعل إلى اليوم وهو الظرف

لوقوعه فيه . ويزخر التعبير الأدبي بمثل هذا النوع من المجاز العقلي فتقول : أفناهم الزمان وأكلتهم الأيام ، وعلاقة هذا المجاز العقلي الزمانية .

٣ - المكانية : وهي إسناد الفعل للمكان لمشابهته الفاعل الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما ويتضح ذلك في قولنا : جرى النهر ، فقد أسند الفعل إلى النهر وهو غير فاعله الحقيقي لأن الذي يجري هو الماء الموجود في النهر .

وإذا قلنا : جلسنا في مشرب عذب ، فالمشرب وهو مكان الشرب لا يكون عذباً وإنما نعني عذوبة ما فيه من ماء ، فأسندنا العذوبة إلى مكان الشرب مجازاً على غير الحقيقة .

٤ - المفعولية : وهي فيما بنى للفاعل وأسند إلى المفعول به ، وهذه العلاقة في المجاز العقلي تتردد في التعبير الأدبي كثيراً ، فتقول : المنزل عامر وهو في الحقيقة لا يعمر غيره ، بل هو معمور بغيره ، وعلى ذلك فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية وكذلك الأمرين نقول إن الحجرة مضيئة والإضاءة لا تقع منها بل عليها ، فهي في الحقيقة مضاءة ، وهي على المجاز مضيئة . ومن ذلك النوع قوله تعالى : ﴿ في عيشة راضية ﴾ والعيشة في الحقيقة مرضية أما صاحبها فهو الراضي .

٥ - الفاعلية : وهي فيما بنى للمفعول وأسند إلى الفاعل ، وهي نقيض العلاقة السابقة وتتضح في قوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ وهذا الوعد في الحقيقة آت ومثل ذلك قولنا : سيل مفعم أي ممتلئ وهذا على المجاز إنما هو في الحقيقة مفعم أي يملأ الوديان .

٦ - المصدرية : وهي فيما بُني للفاعل وأسند إلى المصدر كما شيخ في قوله

تعالى (فإذا نفخ في الصور نفخةً واحدة) فالفعل (نفخ) المبني للمجهول لم يسند إلى نائب فاعله الحقيقي ، بل إلى مصدره (نفخة) وبذلك عد من المجاز الفعلي للعلاقة المصدرية .

وكذلك لو تأملنا قول الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جد جددهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر
لوجدنا أن الفعل (جد) أسند إلى المصدر وليس إلى فاعله الحقيقي وكل هذه العلاقات في المجاز الفعلي تشترك في الإسناد إلى غير ما هوله دون وجود مشابهة ، وهذه العلاقات توجد صلة بين الصورة الفنية والتركيب النحوي في التعبير تساعد على روعة النظم وجمال التصوير .

المجاز المرسل

بيننا من قبل أن المجاز اللغوي تحكمه علاقتان : الملازمة والارتباط بين المعنيين وهو ما يسمى المجاز المرسل ، والعلاقة الثانية المشابهة وهو ما يسمى الاستعارة . وقد سمي النوع الأول مجازاً مرسلأ لعدم تقيده بعلاقة واحدة شأن الاستعارة المحكومة بالمشابهة ، ولكن المجاز المرسل تتسع علاقاته إلى حد كبير . ولعل الخطيب القزويني هو أول من أطلق هذه التسمية ، وإن كان البلاغيون من قبله قد حددوه وذكروا أنواعاً منه كعبد القاهر الجرجاني ، وسماه السكاكي (المجاز اللغوي الراجع إلى المعنى المفيد الخالي من المبالغة في التشبيه) وهو عنده نوع من الاستعارة بدليل قوله (الخالي عن المبالغة في التشبيه) ولو أراد إفراده عن معنى الاستعارة لقال (الخالي عن التشبيه) .

وقد جدد الخطيب القزويني أنواع العلاقة في المجاز المرسل وذكر منها تسعة أنواع ، زاداها البلاغيون المتأخرون مثل بهاء الدين السبكي والتفتازاني وبلغوا بها خمسة وعشرين نوعاً . وسوف نقتصر على أنواع محددة من العلاقة في المجاز المرسل هي الأكثر استخداماً في التعبير الأدبي شعره ونثره ، بل نجدها مستخدمة أحياناً كثيرة في لغتنا اليومية .

١ - الجزئية : بمعنى تسمية الشيء باسم جزئه والمراد الحقيقي كله ، فنحن

نقول : له من العمر عشرون ربيعاً ، ولا نقصد فصل الربيع الذي هو جزء من العام ، بل نقصد العام نفسه ، فكأننا أطلقنا الجزء على الكل ، وهذا الكل هو الذي نعنيه . ومنه قولنا : أرسل العدو عيناً له ، ونقصد جاسوساً ، فالعين هو الجزء المهم منه الذي يستطلع به الأحوال ، ولهذا أطلق الجزء على الكل .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ وتحرير الرقبة مقصود به تحرير العبد من عبوديته ، فكأنه الرقبة وهي الجزء دلت على الكل المقصود وهو العبد نفسه . ويقول الشاعر : (إذا ما قلت قافية شروراً) وهو لا يعني قافية واحدة بل يقصد القصيدة بأكملها ، فدل الجزء على الكل .

ويشترط لإطلاق الجزء على الكل أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً وليس جمعاً لأمرين أو أكثر حيثما اتفق ، ولهذا يمتنع على سبيل المثال التعبير بلفظ (السماء) أو (الأرض) عن مجموع الأمرين . كذلك يشترط أن يكون للجزء المعبر به من الكل أهمية خاصة بالنسبة للكل ، وذلك إما بأن يكون للجزء مزيد اختصاص بالمعنى المقصود من الكل كما في إطلاق (العين) على الجاسوس لأنها أهم أعضاء جسمه استخداماً في عمله ، أو يكون بحيث يلزم من انعدام هذا الجزء انعدام الكل ، كما في (الرقبة) بالنسبة للإنسان . .

٢ - الكلية : وهي نقيض العلاقة السابقة بمعنى تسمية الشيء باسم كله والمقصود الجزء ، كما نجد في قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ فذكر الكل (الأصابع) وأراد الجزء وهي (الأنامل) إذ ليس من المعقول أن يضع الإنسان إصبعه كلها في أذنه .

ومن ذلك أيضاً قولنا : شرب ماء النيل والمراد قدر ضئيل منه أو قولك :
أسكن القاهرة أو الإسكندرية والمراد أنك تسكن في منزل بأحد
أحيائهما . .

٣ - السببية : وهي تسمية المسبب باسم السبب ، كما في قولك : جلّت يده
عندي وأنت تعني من الذي عظم عندك فضله وإنعامه ، فلما كانت اليد
سبباً في تقديم هذا الفضل والإنعام ناب السبب عن المسبب .

ومن ذلك قولهم (رعينا الغيث) والغيث أي المطر لا يُرعى وإنما يرعى
النبات الذي سببه المطر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم ﴾ فسمى جزء الاعتداء اعتداءً لأنه مسبب عن الاعتداء .

٤ - المسيبية : وهي تسمية السبب باسم المسبب ، ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾
فالنار هي المسبب والمراد المال الحرام الذي يكون سبباً فيها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ويُنزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ ، ولما كان المطر
مسبباً للرزق جعل السبب نائباً عن المسبب .

٥ - المحلية : وهي إطلاق اسم المكان على من يحل فيه ، مثلما نسمع في
الأبناء عن إعلان البيت الأبيض موقفه من إحدى القضايا الدولية والمقصود
إعلان الرئيس الأمريكي من مقره في البيت الأبيض .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ والمقصود أهل ناديه المجتمعون
فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأسأل القرية التي كنا فيها ﴾ وهو يعني أهل
القرية .

٦ - الحالية : وهي نقيض العلاقة السابقة أي أننا نذكر لفظ الحال ونريد المحل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله ﴾ . ولما كانت الجنة هي المكان الذي تحل فيه الرحمة ، ذكرت الرحمة والمقصود بها الجنة لأن الرحمة تحل فيها . ومثله قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ فالنعيم لا يحل فيه الإنسان ولكن يحل في مكانه ، فأطلق الحال على المحل .

٧ - الآلية : وهي ذكر اسم الآلة والمراد الأثر الناتج عنها ، كما في استخدام (اللسان) بمعنى اللغة لأنه آلتها الظاهرة في الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ أي بلغة قومه ، ومنه قول تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي اجعل لي ذكراً حسناً ، واللسان أداة هذا الذكر ، فأطلق آلة القول وأراد الأثر الناتج عنها .

٨ - اعتبار ما كان : أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه في الزمن الماضي كما في قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ فالأمر برد مال اليتيم إليه يعني رفع الوصاية عنه فإذا وصل إلى سن البلوغ لا يسمى يتيماً . فاستخدام لفظ (اليتامى) في الآية مجاز علاقته اعتبار ما كان في الزمن الماضي .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا ﴾ فسماه مجرمًا باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام .

٩ - اعتبار ما سيكون : ونعني بها تسمية الشيء بما يؤول إليه في المستقبل كما في قوله تعالى : ﴿ إني أراني أعصر خمرا ﴾ والخمر لا تعصر وإنما هو العنب الذي سوف يتحول عصيره إلى خمر .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ فالمولود حينما يولد لا يكون فاجراً ولا كفاراً ، ولكنه قد يكون كذلك بعد أن يتحول من مرحلة الطفولة إلى الرجولة فهذا القول مجاز مرسل علاقته اعتباراً ما سيكون في المستقبل .

١٠ - المجاورة : ونعني بها تسمية الشيء وليس هو المراد بل ما يجاوره وقد مثلوا لهذا النوع بقول عنترة في معلقته :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكسريم على القنسا بمحرم

فالمجاز العقلي هنا في كلمة (ثيابه) وهي ليست المقصودة ، بل المقصود ما يجاورها من القلب أو غيره من مواضع الجسد التي يصيب منها الرمح ثقيلاً وهناك علاقات أخرى كثيرة اكتفينا منها بما قدمنا لأنه الأكثر استخداماً في التعبير البياني .

الاستعارة

ذكرنا من قبل أن الاستعارة نوع من المجاز تقوم العلاقة فيه بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني الذي انتقلت إليه على المشابهة .

وقد التفت إليها البلاغيون منذ عهد بعيد ووضعوا تعريفات لتحديد لها . فالجاحظ يقول (الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ، وقد عرفها ابن المعتز بأنها (استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها ، وأتى بأمثلة للحسنة منها والمعيبة ، وعرفها القاضي الجرجاني بقوله (وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها) ويقول الرماني إنها (تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة إلى غيره) . ويكاد أبو هلال يستخدم التعريف نفسه في قوله (الاستعارة نقل العبارة موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض) وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى بعض تعريفات هؤلاء البلاغيين الأعلام موضحاً استعمالهم لفظ (النقل) في الاستعارة . ويرى بعض الباحثين وجود تشابه بين هذا اللفظ وبين ما استخدمه « أرسطو » في تعريف الاستعارة ، مما يوحي بوجود تأثير وتأثر في هذا المجال .

غير أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة لا ينبغي تحديدها بنقل العبارة عما

وضعت له ويقول في ذلك : « ومن شأن ما غمض من المعاني ولطف أن يصعب تصويره على الوجه الذي هو عليه لعامة الناس فيقع لذلك في العبارات التي يعبر بها عنه ما يدهم الخطأ ، وإطلاقهم في الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له من ذلك فلا يصح الأخذ به ، وذلك أنك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بينا (يعني بها الشجاعة) لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة ، لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونفضت به يدك ، فإما أن تكون ناقلاً له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض » ومن الأمثلة التي يسوقها عبد القاهر لتأكيد قوله بيت لبيد :

وغداة ربح قد كشفت وقره إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فلا خلاف في أن اليد استعارة، لكن لا يمكن القول بأن لفظ اليد قد نقل عن شيء إلى شيء، لأن هذا النقل كان يسوغ لو أن المعنى على تشبيهه هذا الشيء باليد، فيقال حينئذ إنه نقل لفظ اليد إليه، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال تأثيراً قوياً في الغداة وتصرفاً شبيهاً بتصرف الإنسان في الشيء الذي يمسكه بيده فهو يقلبه كيفما شاء . يقول عبد القاهر : « فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد ، وكما لا يمكنك تقدير النقل في لفظ اليد كذلك لا يمكنك أن تجعل الاستعارة فيه من منعة اللفظ ، ألا ترى أنه محال أن نقول إنه استعار لفظ اليد للشمال . »

ومن الأمثلة الأخرى التي ساقها عبد القاهر للإضراب عن تحديد معنى الاستعارة بالنقل بيت المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمام

وفي رأيه أن الشاعر لما جعل الجوزاء تسمع بالغ في ذلك وأثبت لها

الأذن التي بها يكون السمع من الإنسان، ولا نستطيع أن نقول إن المتنبى قد استعار لفظ الأذن لأنه يوجب أن يكون في الجوزاء شيء قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك محال .

والنتيجة التي أراد عبد القاهر أن يصل إليها في تعريف الاستعارة أنها (ادعاء) معنى الاسم للشيء وليس (نقل) الاسم عن الشيء . كذلك أراد تصحيح ما ذكره البلاغيون السابقون وهو أن الاستعارة تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له ، واعتراضه على ذلك أنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم - كما بين - لم يكن الاسم مزالاً عما وضع له بل يُقرأ عليه .

والخلاف بين عبد القاهر والبلاغيين السابقين في هذا التعريف الاصطلاحي للاستعارة هو في الحقيقة خلاف حول المفهوم التجريدي للنظر (النقل) و (الادعاء) ومحاولة لتحديد ماهية علاقة (المشابهة) التي تقوم عليها الاستعارة أساساً ، لكن إذا نظرنا في المفهوم الحقيقي للفظين وجدنا أن (نقل) اللفظ لا يوجب إخراجه عن معناه الحقيقي ، ويمكن أن تكون للكلمة المستعارة دالتان : حقيقية ومجازية .

والتعريف الذي اختاره عبد القاهر للاستعارة (أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل عليه الشواهد على أنه اختفى به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية) .

ونجد عبد القاهر يقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة قبل أن يمضي إلى ذكر أقسام الاستعارة المفيدة في رأيه .

أما غير المفيدة في رأيه فهي التي لا يعدو أن يكون النقل فيها وضع لفظ مكان آخر ولعل نظرته إلى هذا النوع من الاستعارة التي تقتصر على

التبادل اللفظي وتخلو من عمق المعنى والإحساس الشعوري به هو الذي أدى به إلى رفض (النقل) . فإذا استبدلنا بالشفة في الإنسان (المشفر) وهو اسم العضو نفسه في البعير ، عد ذلك استعارة ، ولكنها في رأي عبد القاهر غير مفيدة لأن الاسم المنقول لا يأتي بجديد نفتقده في الاسم الأصلي . ولا شك أننا لا نوافق عبد القاهر على هذا الحكم ، وهو نفسه قد اعترف لهذا النوع من الاستعارة فضله ومزيته ولكنه قصره على مواضع الذم والعيب ، فإذا قلنا فلان غليظ المشافر ، كان معناه أن شفتيه في الغلظ كأنها مشفر البعير ، ومنه قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيعاً عرفت قرابتي ولكن زنجياً غليظ المشافر

فهو يتضمن معنى قولك : ولكن زنجياً كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتدي لشرفي : والاستعارة هنا مفيدة تماماً في معنى الهجاء الذي أراده الفرزدق ولا يمكن أن تخليها من الفائدة ولا من التصوير الشعوري الدقيق الذي حدا بالشاعر إلى استخدام هذه الاستعارة وما فيها من نقل مشفر البعير مكان شفة الإنسان .

وإذا تأملنا نصوص الشعر والنثر قديهما وحديثهما فسنجد أمثلة كثيرة تؤكد عدم صحة حكم عبد القاهر على هذا النوع من الاستعارة حكماً مطلقاً بأنه غير مفيد ولعل بيت الحطيئة الذي استعطف به عمر بن الخطاب رضي الله عنه لإخراجه من سجنه يبين لنا من ما ذهبنا إليه فهو يقل :

ماذا تقول لأفراخ بذي مسرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

فقد نقل الشاعر في البيت (الأفراخ) المخصصة في اللغة لصغار الطير إلى أولاده الصغار ليؤكد لهم معنى الضعف والعجز عن حماية أنفسهم فبلغ بهذه الاستعارة ما أراد من تصوير شعوري دقيق .

وقد آثر السكاكي الأخذ باصطلاح عبد القاهر وهو (الادعاء) حين عرف الاستعارة بقوله (هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به) .

وهذا التعريف الذي أورده السكاكي أدق ما وصل إلينا من تعريفات البلاغيين ، وقد أخذ به المتأخرون وإن كانوا قد فرعوا من الاستعارة أقساماً كثيرة باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع وباعتبار طرفيها والجامع معاً ، وباعتبار اللفظ ، وباعتبار الخارج . بينما نجد عبد القاهر قد تحدث عن الاستعارة من حيث هي مفيدة أو غير مفيدة - كما سبق أن بينا - كما تحدث عن الاستعارة التحقيقية والتخييلية والتمثيلية . أما السكاكي فقد عرض للاستعارة التصريحية والممكنة والتحقيقية والتمثيلية والأصلية والتبعية .

الاستعارة التصريحية والمكنية

لما كانت الاستعارة مبنية على التشبيه، والتشبيه له طرفان : مشبه ومشبه به ، اختلفت الاستعارة عن التشبيه بسبب ما فيها من (نقل) المعنى أو (الادعاء) وذلك بحذف أحد طرفي التشبيه . فإذا حذفنا المشبه وصرحنا بلفظ المشبه به ، أطلقنا على هذا النوع من الاستعارة (تصريحية) لأننا تناسينا المشبه وادعينا أن المشبه به هو المشبه ، وصرحنا به . كما نرى في قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ فقد شبهت الآية الضلال بالظلمات والهدى بالنور فحذفت المشبهين وصرحت بالمشبهين بهما ، ولا بد من وجود قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي ، وهي هنا قرينة حالية تفهم من سياق الكلام .

كذلك الأمر في قول المتنبي :

وأقبل يمشي في البساط فما دري إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

فقد أراد الشاعر تشبيه الممدوح بالبحر في التطام أمواجه وجبروته لينزل الرعب في قلب رسول الروم الذي جاء يسعى إليه ، فحذف المشبه وهو الممدوح وخرج بالمشبه به وهو البحر والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى

الحقيقي للبحر قوله عن رسول الروم (فأقبل يمشي في البساط) وهي قرينة لفظية .

كذلك أراد الشاعر تشبيه الممدوح بالبدر فحذف المشبه وصرح بالمشبه به وهو البدر في علاه وضيائه ، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للبدر هي نفسها القرينة اللفظية السابقة .

وهناك نوع آخر من الاستعارة لا نصرح فيه بلفظ المشبه به (المستعار منه) ، بل نرّمز إليه بشيء من لوازمه ، أو خاصية من خواصه ، وتسمى هذه الاستعارة (مكنية) لأننا حذفنا المشبه به وكنينا عنه أو رمزنا له بشيء يدل عليه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ فقد شبه الذل بطائر واستعار لفظ المشبه به وهو الطائر للمشبه وهو الذل ، ثم حذف المشبه به (الطائر) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (الجناح) .

وكذلك نجدها في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
فقد شبه الموت بوحش مفترس ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار ، ونلاحظ أن المشبه في الاستعارة المكنية موجود ، ولهذا صح قول البلاغيين في الاستعارة إنها تشبيه حذف أحد طرفيه .

وإذا تأملنا في شعرنا العربي الحديث فسنجد زائراً في صورته الغنية بالاستعارات كما نرى في أبيات إبراهيم ناجي :

والبلى أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت: ويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حي لا يموت
كل شيء من سرور وحزن والليالي من بهيج وشجي
وأنا اسمع أقوام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج

فقد عقد الشاعر علاقة تشبيهية بين البلى والزمن والوحدة من جهة
والإنسان من جهة أخرى وحذف المشبه به وهو الإنسان ودل على أشياء من
لوازمه في كل استعارة ، كاليدين والأقدام والخطى ، وبذلك نرى في الأبيات
ما سميناه بالاستعارة الممكنية في ثلاثة مواضع .

الاستعارة الاصلية والتبعية

أدرك البلاغيون أن اللفظ المستعار (الدال على المشبه به) في الاستعارة التصريحية تتعدد صيغه فيأتي اسماً جامداً مثل كلمة (بحر) في بيت المتنبي السابق ، أو يأتي فعلاً كما في قول المتنبي :

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم
فلاستعارة وقعت في الفعل (تصافحت) إذ شبه التقاء السيوف باللمم بمصافحة الأيدي فحذف المشبه وأبقى المشبه به .

ويأتي في أحيان ثالثة اسماً مشتقاً كقولنا (ماضيه ناطق بالصدق) فقد استعرنا لفظ النطق للدلالة الواضحة على صدقه واشتققنا منه (اسم الفاعل ناطق) بمعنى دال على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفي ضوء إدراك البلاغيين للطبيعة النحوية للفظ الذي تقع فيه الاستعارة قسموها نوعين :

أصلية : وهي ما كان المستعار فيها اسم جنس غير مشتق سواء أكان اسم ذات أي ما دل على شيء مجسم محسوس مثل : رجل ، كتاب ،

بيت ، أو اسم معنى وهو ما يدل على شيء معنوي ونعني بها المصادر : كالنطق أو الأكل أو العلم ، وسواء أكان اسم جنس حقيقة مثل : رأيت أسداً في المعركة ، أم تأويلاً كالأعلام المشتهرة بصفة مثل : رأيت حاتماً ، فالأسد اسم جنس جعلناه دالاً على الشجاعة ، وحاتم الطائي علم مشهور بالكرم جعلناه اسم جنس تأويلاً للدلالة على الكرم .

تبعية : وهي ما كان المستعار فيها فعلاً (كما في قول المتنبي « تصافحت ») أو اسماً مشتقاً (كما في قولنا « ناطق » في المثال السابق) والاسم المشتق هو ما أخذ من غيره مع الاتفاق في المعنى والمادة ويدل على ذات وصفة والمشتقات هي : اسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .

ويرجع الاهتمام بتقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية إلى كون الاستعارة تتم في الأسماء الجامدة بصورة مباشرة ، أما الاستعارة في الأفعال والأسماء المشتقة فتتم بصورة غير مباشرة ، إذ تجري الاستعارة أولاً في المصدر ثم في الفعل . وهذا الاختلاف أمر شكلي لا نهتم به كثيراً في تحليل الصورة الفنية المعتمدة على الاستعارة إذ نحاول معرفة الأبعاد الجمالية دون تدخل المصطلحات النحوية التي لا يؤثر اختلافها في تلك الأبعاد .

الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة

إن الاستعارة - كما سبق أن بينا - تقوم على علاقة المشابهة بين المدلول الأصلي للكلمة والمدلول الذي أعيرت إليه ، وقد تقوي هذه المشابهة بحيث تصير ادعاء بأن المشبه واحد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، ولهذا يُعبر عنه بلفظه أو بصفة من صفاته .

فإذا زاد المتكلم في مبالغته وأمعن في إرادة المعنى الأصلي للكلمة بذكر ما يتصل بالمعنى ويتناسب معه ، حتى ليخيل إلى السامع أو القارئ أن المقصود هو المعنى الحقيقي ، سمي ذلك ترشيحاً للاستعارة أي تقوية وتأكيذاً لها ، كما تتمثل في قول المتنبي :

رمىتهم ببحر من حديد له في البر خلفهم عباب

فقد استعار الشاعر لضخامة الجيش وقوته لفظ (البحر) وقوى هذه الاستعارة بذكر (البر) و(العباب) وهما مناسبان لمعنى البحر حتى ليخيل للمرء أن البحر معنى حقيقي مقصود ، ومن هنا سميت هذه الاستعارة (مرشحة) .

ومن هذه الاستعارة قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة

بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴿ فقد استعير (الشراء) لمعنى الإيثار والتفضيل ، ثم ذكر (الربح) و (التجارة) وهما لفظان ملائمان لمعنى الشراء حتى صار كأنه المعنى الحقيقي المقصود ، وهما تأكيد وتقوية للمعنى الاستعاري في الشراء ، ولهذا كانت الاستعارة هنا مرشحة .

فإذا حدث العكس وجردنا المشبه به مما يقويه ويؤكدده ، وتضمن أسلوب الاستعارة ما يتلاءم مع المشبه ، سمى تجريداً للاستعارة ، وتبين هذا في قول كثير :

عَمُرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لَضَحِكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

فقد استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه ، كما يصون الرداء ما يستره ، ووصفه بالغمر وهو وصف للمشبه (المعروف) وليس المشبه به (الرداء) ، ولهذا سميت هذه الاستعارة مجردة .

وقد تأتي الاستعارة متضمنة ما يلائم المشبه (المستعار له) والمشبه به (المستعار منه) كقول كثير :

بَرَمْتَنِي بِسَهْمٍ رِيْشُهُ الْكُحْلُ لَمْ يَضُرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهُوَ لِلْقَلْبِ جَارِحٌ

فقد استعار السهم لنظرة العين ، واستخدم (الريش) وهو مما يلائم المشبه به ، واستخدم (الكحل) وهو مما يلائم المشبه ، ولهذا سميت هذه الاستعارة (مطلقة) .

كذلك تسمى الاستعارة مطلقة إذا خلت مما يلائم المستعار منه أو المستعار له كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي

الجارية ﴿ . ففي لفظ (طغى) استعارة تصريحية تبعية إذ شبه الزيادة في الماء بالطغيان واشتق من المصدر الفعل (طغى) ، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفظية وهي (الماء) . والاستعارة هنا مطلقة لأنها لم تقترن بما يلائم المستعار له أو المستعار منه .

الاستعارة التمثيلية

في الأمثلة السابقة التي قدمناها نلاحظ أن الاستعارة تقع في كلمة ولهذا نسميها استعارة مفردة ، ولكن هناك نوع آخر من الاستعارة يقع في التركيب ، أي أن هذا التركيب مستعمل في غير دلالاته الأصلية للمشابهة بين موقفين ، وهذه الاستعارة تماثل التشبيه المركب ومن هنا كان اسمها الاستعارة المركبة ، أو التمثيلية قياساً على تسميتنا التشبيه المركب بالتمثيلي . ومن الطبيعي ألا يذكر المشبه في الاستعارة المركبة وإنما يفهم من السياق ودلالة الحال .

وسميت هذه الاستعارة بالتمثيلية مع كون التمثيل عاماً في كل استعارة تنويهاً بعظم شأنها وكان غيرها من الاستعارات ليس فيه تمثيل .

ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية الشائعة قولك لمن يتردد في فعل أمر : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، والأصل في الكلام أن تقول : أراك في ترددك كالذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ثم اختصر الكلام وجعل تقديم الرجل وتأخيرها كأنه الحقيقة .

وتقول للذي يبذل جهداً في غير طائل : أراك تنقش على ماء والمعنى أنك فيما تبذله من جهد دون أن تحصل على طائل كالذي ينقش على الماء .

وتقول لمن يعثر المال الذي ورثه بيت الشاعر :

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

والعلاقة في هذه الاستعارة التمثيلية أنك شبهت حال الذي يبعثر المال الذي ورثه دون أن يبذل جهداً في جمعه وكسبه بحال الذي استولى على أرض بغير حرب فهان عليه التفريط فيها ، وقد استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام .

وحين تشيع الاستعارة التمثيلية ويكثر استعمالها تصبح مثلاً وهو يتميز بأنه قول موجز يجمع معاني كثيرة في ألفاظ قليلة ، ويخاطب به المفرد والمثنى والجمع ، مذكراً أو مؤنثاً بلا تغيير . فتقول لمن يدرك أمرين بتدبير واحد : رمى عصفورين بحجر ، وتقول لمن يطلب أمراً بعد فوات الأوان : الصيف ضيعت اللبن بكسر تاء الفاعل لأن هذا المثل خوطبت به امرأة في الأصل ، فلا تغير صورته عند استعماله في مذكر يشابهه ، أيأ يكن المخاطب به (هذه المرأة تركت زوجها وعنده لبن ، وأتت بعد فراقها له تطلب اللبن منه فقال لها العبارة المشهورة) .

ولا شك أن الاستعارة في جميع صورها تقرر الصفة بطريقة مؤكدة موجزة قريبة من تجربة السامع أو القارئ ، وهي تمتاز عن التشبيه بأنها أكثر إيجازاً لأنها حذف أحد طرفي التشبيه ، كما أنها أكثر تأكيداً لأنها جعلت المشبه داخلاً في جنس المشبه به ، أو مستحقاً لأن يوصف بصفاته . وهي قادرة على التشخيص والتجسيم وإشاعة الحياة في الصورة . ويعيب الاستعارة شيوعها حتى إنها تفقد قيمتها ، وكلما كانت الاستعارة مبتكرة كانت أقدر على إشاعة الخيال والإحساس الجمالي .

الفصل الرابع الكناية

الكناية عن الشيء لغة ترك التصريح به ، وفي اصطلاح البلاغيين : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى ، فقد يمدح فلان بطول النجاد : أي طويل القامة مع جواز أن يراد حقيقة طول النجاد أيضاً وهي حمائل السيف لأن طوله يستلزم طول القامة . وقد التفت البلاغيون الأوائل إلى الكناية فتحدث عنها أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) إذ ذكر قوله تعالى (كل من عليها فان) وقوله (حتى توارت بالحجاب) وقوله (كلا إذا بلغت التراقي) فقال إن الله سبحانه وتعالى كنى في الأولى عن الأرض ، وفي الثانية عن الشمس ، وفي الثالثة عن الروح من غير أن أجرى ذكرها .

وأشار الجاحظ في البيان والتبيين إلى الكناية والتعريض ، وأورد قول شريح (الحدة كناية عن الجهل) وقول أبي عبيدة (العارضة كناية عن البذاء) ، وإذا قالوا (فلان مقتصد) فتلك كناية عن البخل ، وإذا قيل للعامل (مستقص) فتلك كناية عن الجور .

وجعل المبرد الكناية على ثلاثة أوجه : فهي إما للتعمية والتغطية ، وإما للربحية عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، وهذا

النوع في نظره أحسن أنواع الكناية ، يقول : ويكون من الكناية وذلك أحسنها : الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، قال الله وله المثل الأعلى ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ وقال : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ والملامسة في قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية ، وإنما هو اللمس بعينه . وإما للتفخيم والتعظيم وهذا هو الوجه الثالث وذكر فيه أن الكنية اشتقت من هذا النوع .

وتحدث عنها ثعلب في كتابه (قواعد الشعر) وسماها بطانة المعنى وعرفها بقوله : هي الدلالة بالتعريض عن التصريح ، ومثل لها يقول عروة بن الورد :

اقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
يريد : أوثر أضيافي بزادي .

وأشار ابن المعتز إلى الكناية وأتى بأمثلة لها من الشعر والنثر . وسماها قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) الإرداف وعرفها بقوله (هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع . ومثل له بقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
فالشاعر أراد أن يصف طول جيدها فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى دل عليه من طول مهوى القرط ، وواضح أن بعد مهواه ردف لطول الجيد .

وقد رأى ابن رشيق القيرواني أن من أنواع الإشارة (التبييع) وذكر أن قدماً يسمونه (التجاوز) وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر ما

يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه ، ثم قال : وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فقوله (يضحى فتيت المسك) تتبوع ، وقوله (نؤوم الضحى) تتبوع ثان ، وقوله (لم تنتطق عن تفضل) تتبوع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤونة ، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة . وهذا الذي شرحه ابن رشيق وسماه التتبوع أو التجاوز هو نفسه الكناية .

ويعرف عبد القاهر الكناية بقوله (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه) .

وفي هذا التعريف بيان بأن استخدام اللفظ في غير معناه الذي استقر عليه لا يتم كيفما اتفق بل على أساس علاقة تربط بين المعنيين ، وهذا قائم أيضاً في المجاز ، غير أن العلاقة في الكناية تنحصر في علاقة الردف أو التبعية ، أو هي علاقة التلازم بين المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ والمعنى الآخر المراد منه .

والتلازم القائم بين المعنيين في الكناية مصدره العرف والعادة ، فعرض اليدين مثلاً يرتبط بالحسرة والندم ، ويتضح تأثير الهيئة في الكناية في قولهم (فلان كثير الرماد) للدلالة على الكرم إذ أن من تقاليد البيئة الجاهلية تقديم الطعام الذي يتم نضجه على الحطب الذي يتخلف عنه الرماد ، فكثرت دليل على كثرة الضيوف .

وفي عصرنا الحديث نستخدم كنايات فيها روح العصر كقولنا (ينظر إلى

الدنيا بمنظار أسود) كناية عن التشاؤم، أو (ينبغي للدول المستضعفة أن تتحدث بلغة (المدفع) كناية عن استخدام القوة .

ولا شك أن الكناية تمثل المعنى للخيال بإدراك حسي أو وجداني ، وتثير الذهن للبحث عن المعنى المستتر وراء الصورة ، إلى جانب ما فيها من طرافة التعبير . وقد شاع استعمال بعض الكنايات حتى في كلامنا العادي حتى فقدت قيمتها الفنية وتأثيرها النفسي كما نقول في إنسان سريع التأثر (خفيف القلب) وفي الكريم (بابه مفتوح) ولا شك أن تجريد الكناية يحرك الفكر ويبعث على التأمل ويقضي على الرتابة . وتتسم الكناية بطابع التمثيل والتشخيص للمعاني حتى لتقترب كثيراً من فن الرسم ، وربما الرسم الساخر أحياناً (الكاريكاتيري) ويتضح ذلك في قولنا عن البخيل (يده مغلولة إلى عنقه) ، أو في شخص كبرت سنة (انحنى ظهره وأخذ يدب على العصا) .

وإرادة لازم المعنى في الكناية أشبه ما يكون بتأكيد إثبات الصفة ، وذلك أقوى من التعبير الصريح المباشر ، يقول عبد القاهر في ذلك (أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم ، إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا سازجاً غفلاً ، وذلك أنها لا تدعي شاهداً الصفة ودليلها إليها والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط) .

اقسام الكناية

تنقسم الكناية ثلاثة أنواع باعتبار المكنى عنه أي الموصوف :

فالنوع الأول يكون المكنى عنه صفة من الصفات كالكرم أو الشجاعة أو العفة ، كما نجد في قول الخنساء :

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتا
فكنت عن طول قامته بطول النجاد وعن كرمه بكثرة الرماد .

وقد مر بنا قول امرئ القيس :

وتضحى فثيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفصل

ففي البيت كنايات ثلاث هي في أصلها صفة ، وتدل الثلاث على حياة الرفاهية والنعمة التي تحياها هذه المرأة ، فهي تتعطر ولا تنهض مبكرة من فراشها بل تظل فيه حتى الضحى لوجود الخدم الذين يقضون عنها شئون بيتها ، وهي لا ترتدي في الكناية الثالثة ملابس الخدمة المنزلية لأنه لا حاجة بها إلى ذلك .

كما مر بنا قول عمر بن أبي ربيعة (بعيدة مهوى القرط) وهي كناية عن

صفة أراد امتداح محبوبته بها وهي طول الجيد .

ويقول المتنبي :

فمستاهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

فكنى عن صفة النعيم والترف التي كانوا فيها بقوله (وبسطهم حرير)
ثم كنى عن صفة الخراب والضنك التي حلت بهم بقوله (وبسطهم تراب) .

والنوع الثاني : يكون المكنى عنه نسبة يزداد بها إثبات الصفة للشيء
بإثباتها لما يلابسه ويعد جزءاً منه كقولنا (الحزم في إهابه) فإثبات الحزم
للإهاب يلزم بالضرورة إثباته للشخص نفسه .

ومثله قول أبي نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
فهو يثبت جود الممدوح بإثباته للمكان الذي يكون فيه .

وكذلك قول الشنفرى :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت
فقد نفى اللوم عن بيتها وهو نفى اللوم عن شخصها . فهي تتجنب كل
ما يسيء إلى بيتها ويوجه إليه اللوم .

والنوع الثالث : لا يكون المكنى عنه صفة أو نسبة بل هي كناية
الموصوف بشرط أن تكون الكناية مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه كقول
الشاعر :

الضاريين بكل أبيض فُحْذِمِ والطاعنين مجامع الأضغان
فقد كنى بمجامع الأضغان عن القلوب وهي الموصوف ولا تكون

الأضغان أو عاطفة الكره إلا بها . وكذلك الشأن في بيت البحري حين يصف قتله الذئب :

فأتبعها أخرى فأضلت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فالقلب هو الموصوف بتلك الكناية (حيث يكون اللب والرعب
والحقد) وهي ثلاث كنايات لاستقلال كل واحدة بإفادة المقصود ، والقلب
موضع هذه الصفات جميعاً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ فذات
الألواح والدسر أي المسامير كناية عن موصوف هي السفينة .
ويقول شوقي :

إن الذي ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره في الضاد
فقد كنى عن اللغة العربية وهي الموصوف بالضاد بوصفها من الحروف
التي تتميز بها اللغة العربية عن سواها .

وفي كل ما مر بنا من أنواع الكنايات لا نجد لفظاً أخرج عن معناه
الحقيقي إلى معنى مجازي ، والذي يفرق بين الكناية والمجاز عدم وجود
قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في الكناية ، بينما يشتمل أسلوب المجاز
على قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي . فقد ذكرنا قوله تعالى :
﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ فائلين إنه مجاز مرسل علاقته الكلية إذ قيل
الأصابع والمراد الأنامل ، ويستحيل أن يراد المعنى الحقيقي للأصابع
لاستحالة إدخالها في الأذان .

وإذا نظرنا في مثال للاستعارة المكنية مر بنا وهو قول الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

استحال علينا أن نصدق وجود أظافر للمنية في الحقيقة . أما في أسلوب
الكناية فيمكن تصور الحقيقة فيما تكنى عنه ، فإذا تأملنا قول المتنبي
(فمساهم وبسطهم حرير) أمكننا أن نتصور في الحقيقة افتراشهم بسطاً من
الحرير وقوله (وصبحهم وبسطهم تراب) أمكننا أن نتصور في الحقيقة أنهم
افترشوا التراب بعد أن حطم سيف الدولة ما يملكونه .

القسم الثاني

نصوص بلاغية في البيان

١ من كتاب (البدیع) لعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عبدالله بن المعتز رحمه الله . قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ولكنه كثير في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سُمّيَ بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه ثم إن حبيب بن أوس الطائيّ من بعدهم شُعبَ به حتى غلب عليه وتفرّع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمره الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفنّ البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيتٌ بديعٌ وكان يُستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوةً بين الكلام المرسل وقد كان بعض العلماء يُشبهه الطائيّ في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا أعدلّ كلام سمعته في هذا المعنى .

بسم الله

من الكلام البديع قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

ومن الشعر البديع قوله [من البسيط] .

... وَالصُّبْحُ بِالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ مَنْحَوْرُ

وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يُعَرَفَ بها من شيء قد عُرِفَ بها مثل أم الكتاب ومثل جناح الذلِّ ومثل قول القائل الفكرة مُخِّ الْعَمَلِ فلو كان قال لُبُّ الْعَمَلِ لم يكن بديعاً .

ومن البديع أيضاً التجنيس والمطابقة وقد سبق إليهما المتقدمون ولم يتكرهما المحذثون وكذلك الباب الرابع والخامس من البديع .

وقد أسقطنا من كتابنا هذا أسانيد الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أصحابه إذ كان ذلك من التكرير ولم نذكر إلا حديثاً مشهوراً . ولعلَّ بعض مَنْ قَصَرَ عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدّثه نفسه وتمنيّه مشاركتنا في فضيلته فيسمّى فناً من فنون البديع بغير ما سمّيناه به أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً مثوراً أو يفسّر شعراً لم نفسره أو يذكر شعراً قد تركناه ولم نذكره إمّا لأنَّ بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فألقيناه أو لأن فيما ذكرنا كافياً ومغنياً . وليس من كتاب إلا وهذا ممكن فيه لمن أراه وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحذثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع وفي دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التي قصدناها وبالله التوفيق .

الباب الأول من البديع وهو الاستعارة

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ . وقال : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ . وقال :

﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ . وقال : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ . وقال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ .

الأحاديث : فأما أحاديث النبي صلى الله عليه فقوله : « خير الناس رَجُلٌ مُمِسِكٌ بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعةً طار إليها » . وقوله : « ضمّموا ماشيتكم حتى تذهب فحمة العشاء » . وقوله : « إنا لا نقبل زُبدَ المشركين أي رَفَدَهُم » . وقال صلى الله عليه : « ربُّ تقبَّلْ تَوْبَتِي وَأَغْسِلْ حَوْبَتِي » . وقال صلى الله عليه : « غلب عليكم داء الأمم الذين من قبلكم الحسد والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشَّعر » .

كلام الصحابة : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة في بعض كلامه « أُرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَاحْلُلْ عُقْدَ الخوف عنهم » . وسُئِلَ عن تغيير الشيب وما رُوِيَ في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشْبِهُوا بِالْيَهُودِ » فقال علي رضي الله عنه « إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ وَالِدَيْنُ فِي قُلِّ فَأَمَّا وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُ الْإِسْلَامِ فَكُلُّ امْرَأٍ وَمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ » . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وذكر الملوكة فقال « إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا مَلَكَ أَحَدُهُمْ زَهَدَهُ اللَّهُ فِي مَالِهِ وَرَغِبَهُ فِي مَالٍ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبَهُ الْإِشْفَاقَ وَهُوَ يَحْسُدُ عَلَى الْقَلِيلِ وَيَتَسَخَّطُ الْكَثِيرَ جَذِلُ الظَّاهِرِ حَزِينُ الْبَاطِنِ فَإِذَا وَجِبَتْ نَفْسُهُ وَنَضَبَ عَمْرُهُ وَضَحَا ظِلُّهُ [حَاسِبُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ] فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقْلَّ غَفْرَهُ » . أراد من هذا نَضَبَ عَمْرُهُ وَهُوَ مِنَ الْإِسْتِعَارَةِ وَرَوَوْا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ كَبِيرَ فَارَسَ عَنْ أَحْمَدِ سَيِّرِ مَلُوكِهِمْ عِنْدَهُمْ فَقَالَ « لِأَرْدَشِيرَ فَضِيلَةَ السَّبْقِ غَيْرَ أَنَّ أَحْمَدَهُمْ سِيرَةَ أَنْوَشِرَوَانَ قَالَ فَأَيُّ أَخْلَاقِهِ كَانَ أَغْلَبَ [عَلَيْهِ] قَالَ الْحِلْمَ وَالْأَنَاةُ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُمَا تَوْأَمَانِ يَتَتَجَمَّعَانِ عَلَوِ الْهَمَّةِ . وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِلْمُ قَفْلٌ مِفْتَاحُهُ السُّؤَالُ . وَرَوَوْا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِبَعْضِ الْخَوَارِجِ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَاللَّهُ مَا عُرِفَتْ حَتَّى نَعَرَ الْبَاطِلُ فَتَجَمَّتْ

نجومَ قَرْنِ الماعزة . أردنا قوله نعر الباطل . ورووا أن عمر رضي الله عنه لما حصَّب المسجد قال له رجل لِمَ فعلت ذلك فقال هو أغفر للنخامة . وقال الشعبي كتب خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس عند مقدِّمه العراق أما بعدُ فالحمدُ لله الَّذي فضَّ خَدَمَتِكُمْ وفرَّقَ كلمتكم . الخدِّمة الحَلِّقة المستديرة ومنه قيل للخلاخيل خِدامٌ . قال الشاعر [من المتقارب] .

... وتُبدي لِذالك العَدَّارِي الخِداما

وسُئلت عائشة رضي الله عنها هل كان النبي صَلَّى اللهُ عليه يُفَضِّلُ بعض الأيَّام على بعض قالت كان عمله ذِمةً أي دائماً . ولما قُتل عثمان رضي الله عنه قال أبو موسى هذه حَيِّصَةٌ من حَيِّصات الفِتنِ بَقِيَت المَثَقَلَةُ الرِواح . وقال الحجاج يوماً في حديث ذكره الشعبي دُلُونِي على رجل سَمِين الأمانة . ولما عقدت الخوارج الرياسة لعبد الله بن وهب الراسبيَّ أرادوه على الكلام فقال لا خير في الرأي الفطير والكلام القضيبي فلما فرغوا من البيعة له قال دعوا الرأي يَغِبُّ فَإِنَّ غُبوْبَهُ يَكشِفُ لكم عن فَصِيهِ . وقال بعض الصالحين في ذمه الدنيا دارٌ غُرست فيها الأحزان وسكنها الشيطان وذمها الرحمن وعوقب بها الإنسان . وكان يقال رأسُ المآثمِ الكذبُ وعمودُ الكذبِ البهتان . وقال إبراهيم النخعيُّ الفِكرُ مَخَّ العمل . وقيل لأعرابيِّ إِنَّكَ لَحَسَنُ الكِدْنَةِ قال ذاك عنوان نعمة الله عندي . ووصف أعرابيِّ قوماً فقال كانوا إذا اصطَفُوا سَفرت بينهم السهام وإذا تصافحوا بالسيوف فغَرَّ الحمام . وقال أكنمُ الحَلْمُ دعامةُ العقل . وسُئِلَ آخر عن البلاغة فقال دُنُو المأخذِ ونَزْعُ الحجَّةِ وقليل من كثير . وقال خالد بن صفوان لرجل رحم الله أباك فإنه كان يَقْرئ العينَ جمالاً والأذنَ بياناً . وسُئِلَ أعرابيٌّ عن صديق له فقال صَفِيْرَتِ عِيَابِ الوُدِّ بيني وبينه بعد امتلائها وأكْفَهْرَتِ وجوهٌ كانت بمائها . وذكر أعرابيِّ رجلاً فقال إِنَّ الناسَ يَأْكُلون أماناتِهِمْ لَقَمًا وِفْلانَ يحسوها حَسُوا . وقيل لأعرابيَّةِ أين بلغَتْ قِدْرُكَ فقالت حين قام

خطيئها . وقال بعضهم من ركب ظهرَ الباطل نزل دار الندامة . وقيل لأعرابيِّ
كم أهلك قال أبٌ وأمٌ وثلاثة أولادٍ أنا سبيلُ عيشهم . وقيل لرؤبة كيف خلقت
ما وراءك قال المراد يابسٌ والمال عابسٌ . ومن الاستعارة قول امرء القيس
[من الطويل] :

وليلٍ كمَوجِ البحرِ مُرخٍ سُدُوْلُهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقَلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأُرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكُلِّكُلٍ

هذا كله من الاستعارة لأن الليل لا صُلب له ولا عَجَز . وقال [من
الطويل] .

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَمَالَ السَّلِيْطَ بِالذَّبَالِ الْمُفْتَلِ
أرذنا من هذا البيت قوله أَمَالَ السليط . وقال زهير [من الطويل] .

إِذَا لَقِحتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهَرُّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عُضْلُ
تُهَرُّ أَي تحملهم على أن يكرهوا يقال هرّ فلان كذا إذا كرهه وأهررتَه أنا
حملته عليه وهريرُ الكلب صوتٌ يُرَدِّده إلى جوفه إذا كره الشيء أو الشتاء لشدة
البرد أو لغيره . وقال أبو سعيد القول تَهَرُّ ومن قال تَهَرُّ الناس أراد أنها أساءت
أخلاقهم لشدتها وتَهَرَّ كأنها تنبج في وجوههم . وقال أيضاً [من الطويل] .

صَحَا الْقَلْبُ عَنِ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بِاطِلُهُ وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاجِلُهُ
وقال أيضاً [من الوافر] .

إِذَا سُدَّتْ بِهِ لَهَوَاتُ تُغْرِ يُشَارُ إِلَيْهِ جَانِبُهُ سَقِيمٌ
وقال النابغة [من الطويل] .

وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ
تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

أراد قوله أراح الليل عازب همّه هذا مستعاراً من إراحة الراعي الإبل إلى مباءتها أي موضع تأوي إليه . وقال أيضاً [من الطويل] :

عَلَى أَنْ حِجْلَيْهَا إِذَا قُلْتَ أَوْسِعَا صَمَوْتَانِ مِنْ مَلٍّ وَقِلَّةِ مَنْطِقِ
وقال الأعشي [من الكامل] :

إِذْ لِمَتِي سُودَاءُ أَتْبَعُ ظِلَّهَا غَزِيلاً قَعُودَ بَطَالَةٍ أَمْشِي دَدَا
وقال أيضاً [من الطويل] :

سَمَا لابن هُرٍّ فِي الْعِثَارِ بِطَعْنَةٍ تَفُورُ عَلَى سِرْبَالِهِ نَعْرَاتُهَا
وقال أيضاً [من الوافر] :

فَإِنَّ الْحَرْبَ أَمْسَى فُحْ لُهَا فِي النَّاسِ مُغْتَبِلِمَا
وقال أوس بن حجر [من الطويل] :

وَإِنِّي أَمْرٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا
رَأَيْتُ لَهَا نَاباً مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا
وقال عنتره بن معاوية العبسي [من الكامل] :

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ
البكر أول السحاب أراد أنها لم تمطر قبل ذلك . وقال مهلهل [من
الكامل] :

تَلَقَى فَوَارِسَ تَغْلَبَ ابْنَةَ وَاثِلٍ
يَسْتَطْعَمُونَ الْمَوْتَ كُلَّ هُمَامٍ
وقال الأفوه الأودي [من الرمل] :

مُلْكِنَا مُلْكُ لِقَاحٍ أَوَّلُ وَأَبُونَا مِنْ بَنِي أَوْدٍ خِيَارُ
قال أبو سعيد اللقاح من العرب الذين لا يدينون للملوك وهو مأخوذ من
لقاح الإبل أي هم مستغنون بما عندهم من العز عن غيرهم . وقال علقمة بن
عبدة [من البسيط]:

بَلْ كُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ عَزَوْا وَإِنْ كَرُمُوا
عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ مَرَجُومُ

وقال المسيب بن علس [من المتقارب]:

وإِنَّهُمْ قَدْ دَعَوْا دَعْوَةً سَيَتَّبِعُهَا ذَنْبٌ أَهْلَبُ

وقال الأسود بن يعفر [من الوافر]:

فَأَدَّ حَقُوقَ قَوْمِكَ وَاجْتَنِبْتَهُمْ وَلَا يَطْمَحُ بِكَ الْعِزُّ الْفَطِيرُ
قال أبو سعيد أراد عزا ليس بالمُحْكَمَ كما أَنَّ الفطير من العجين ليس
بمستحكمٍ والفطير في غير ذا الجِلْدُ الَّذِي لَمْ يُدْبَغْ وَقَالَ طِفِيلُ [من
الكامل]:

وَجَعَلْتُ كُورِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ يَقْتَاتُ لَحْمَ سَنَامِهَا الرَّحْلُ
وقال أيضاً [من الطويل]:

جَذَتْ حَوْلَ أَطْنَابِ الْبُيُوتِ وَسَوَّتْ

مراداً فَإِنْ تُقَرِّغُ عَصَا الْحَرْبِ تُرَكَّبِ

سَوَّتْ شَمَّتْ مَرَادَهَا الْمَوْضِعَ الَّذِي تَرُودُ فِيهِ . وقال الحرث بن جِلْزَةَ
[من الكامل] .

حَتَّى إِذَا أَلْتَفَعَ الظُّبَاءُ بِأَطْ رَافِ الظُّلَالِ وَقَلْنَ فِي الكُنْسِ

قال أبو سعيد التفع من اللفاع وهو اللحاف الذي يلتفع به ثم صار كلُّ
ثوب يُجَلَّلُ به الإنسان لِفَاعاً . وقال عمرو بن كلثوم [من الطويل]:

ألا أبلغ النُّعْمَانَ عَنِّي رسالةً فمجدُّكَ حَوْلِي ولؤؤمُكَ قَارِحُ
وقال النابغة الجعدي [من المتقارب]:

إذا أغلَقَ الأمرُ أبوابَه وعَيَّ ذُوو الحِزْمِ بالمَذْهَبِ
علا بهم لُجَّةٌ مَهْلِكاً وإن يَطْفُ أَصْحَابُه يَرْسُبِ
وقال الحطيئة [من الطويل]:

ألا مَنْ لِقَلْبِ عَارِمِ النَّظْرَاتِ يُقَطِّعُ طَوَلَ اللَّيْلِ بِالنَّزْفَرَاتِ
وقال أبو ذؤيب الهذلي [من الكامل]:

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظفارها ألفتْ كبلَ تَمِيمَةٍ لا تَنفَعُ
وقال أبو خراش الهذلي [من الطويل]:

أرُدُّ شُجَاعَ البَطْنِ قد تَعَلَّمِينَهُ
وأوثرُ عَيْرِي من عِيَالِكَ بالطُّعْمِ

وقال لبيد [من الكامل]:

فَيْتَلِكُ إذ رقص اللوامعُ بالضحى
واجتابَ أَرْدِيَةَ السرابِ إكَامُهَا

وقال أيضاً [من الكامل]:

وغداة ریحٍ قد كَشَفَتْ وَقْرَةَ إذ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشُّمَالِ زِمَامُهَا

وقال أوس بن مغراء يهجو بني عامر [من الطويل]:

يشيبُ على لُؤْمِ الفِعالِ كَبِيرُهَا
ويُعْذَى بِنَدْيِ اللُّؤْمِ فِيهَا وَلَيْدُهَا

وقال مُزَرَّد [من الطويل]:

عَسُوفُ السَّرَى خَبَازَةٌ فِي عَشَائِهَا

رُؤُوسَ الْأَفَاعِي بَيْنَ خُفِّ وَمَنْسِمٍ

هو ضربها بيدها ومنه أخذ الخبز لإلصاقه بالتنور . وقال الأخطل [من

الطويل]:

وَأَهْجُرُ هَجْرَانًا جَمِيلًا وَيَنْتَحِي لَنَا مِنْ لَيْالِينَا الْأَوَائِلِ أَوَّلُ

وقال جرير [من الطويل]:

لَحِقْتُ وَأَصْحَابِي عَلَى كُلِّ حُرَّةٍ مَرُوحٍ تُبَارِي الْأَخْنَسِيَّ الْمُكَارِبَا

وقال المرار الفقعسي [من البسيط]:

وَالْقَوْمُ قَدْ طَلَّحُوا وَالْعَيْسُ رَازِحَةٌ

كَأَنَّ أَعْيُنَهَا نُزْحُ الْقَوَارِيرِ

وقال الفرزدق [من الطويل]:

لِيُغَمِّزَ عِرْزًا قَدْ عَسَا عَظْمُ رَأْسِهِ قُرَاسِيَةً كَالْفَحْلِ يَصْرِفُ بَازِلُهُ

ومن البديع والاستعارة من كلام المحدثين وأشعارهم قول مالك بن دينار القلب إذا لم يكن فيه فكرة خرب . ورأى المأمون بعض ولده وفي يده دفتر فقال ما هذا يا بُنَيَّ فقال بعض ما يَشْحَذُ الْفِطْنَةَ وَيُؤَنِّسُ فِي الْوَحْدَةِ ، فقال المأمون الحمد لله الذي أراني من ذريتي من ينظر بعين عقله . وقال المنصور لمحمد بن عمران التيمي قاضي المدينة بلغني أنك بخيل قال والله ما أجمد في حق ولا أذوب في باطل . وقال اسحق بن إبراهيم الموصلي حدثني أبو دُلف قال دخلت على الرشيد وهو في طارمة وإذا بباب الطارمة شيخ جليل على طنفسة فلما سلمت قال لي الرشيد كيف أرضك قلت خرابٌ يبابٌ خربها الأعرابُ والأكرادُ فقال قائل هذا آفة الجبل هو أفسده فقلت فأنا أصلحه فقال الرشيد وكيف ذاك قلت أفسدته وأنت عليٌّ فأصلحه وأنت معي فقال الشيخ إنَّ هِمَّتَهُ لَتَرْمِي بِهِ مِنْ وَرَاءِ سِنِّهِ مَرْمًى بَعِيدًا فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ لِي الْعَبَّاسُ بْنُ

الحسن العلويُّ . ووقع بين أحمد بن يوسف وبين رجل شرُّ بين يدي المأمون فقال أحمدُ للمأمون قد والله رأيتَه يا أميرَ المؤمنين يَسْتَمِلِي من عَيْنِكَ ما تَلْقَانِي به . وقال الرشيد وقد أنشده النَّمْرِي [من البسيط]:

ما كُنْتُ أوفي شبابي كُنْهَ غِرَّتَه حتَّى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ

وما خيرُ الدنيا لا يُخَطِرُ فيها بِرِثاءِ الشباب . وكتب خالد بن برمك إلى ابنه يحيى لعمر بن عثمان التيمي عافانا الله وإياك من السوء برحمته قد عرفت حال عمرو بن عثمان التيمي ونقادمُ وُدِّه وانخراطَه في سِلْكننا فتوَلَّ من أمره ما يُشْبهُك أو يُشْبهُهُ فأمر له يحيى بألف ألف درهم . وقال إسحق قُلْتُ للعباس ابن الحسن إنني لأحِبُّك فقال رائدُ ذاك معي وذكرت له رجلاً فقال دَعْنِي أَتَدَوِّقُ طَعْمَ فراقه فهو والله لا تُشْجِي به النفس ولا تُكْثِرُ في أثره الالتفات . وكتبتُ إلى بعضهم إنما قلبي نَجِيٌّ ذِكْرِكَ ولساني خادمُ شُكْرِكَ . وكتبتُ في بعض الكتاب قد طالت عِلَّتُك أو تعالَلُك واشتدَّ شوقنا إليك فعافاك الله ممَّا بك من مرض في بدنك أو إخائك ولا أعدَمَنَّكَ . وقال عبدالله بن إدريس قال كان لي جارٌ معتوهٌ فقلت له يوماً ما أجودُ الشعر فقال ما لم يَحْجُبْهُ عن القلب شيءٌ انظُرْ إلى قوله [من الطويل]:

ألا أيُّها النِّوَامُ وَيَحْكُمُ هُبُوا . . .

وأنشده بصوت جهيرٍ ثمَّ قال أعرابيٌّ استأذن على القلب فلم يُؤذَنَ له ثمَّ

أنشد [من الطويل]:

. . . أسألكم هل يقتل الرجلُ الحُبَّ

بصوت لَينٍ ثمَّ قال هذا مخنثٌ استأذن على القلب فأذِنَ له . وقال أبو

عبدالله الزُّبَيْرِيُّ ما سَمِعَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه أحداً يَحْمَدُ اللهُ إلاَّ جاذِبَهُ الحَمْدَ . وقال عمر بن عبد العزيز وجبت حُجَّةُ اللهِ على ابن الأربعين وأنشد

[من الطويل]:

إذا المرءُ وفي الأربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياءً ولا سترُ
فدَعُه ولا تنفس عليه الذي مضى وإن مَدَّ أسباب الحياة له العُمُرُ
يقال نَفَسْتُ بالشيء على فلان أنفَسُ إذا بخلتُ به عليه . وكان رجلٌ
من أهل الأدب له أصحابٌ يشربُ معهم وينادِمُهُم فدَعَوهُ فلم يُجِبْهُم فقالوا ما
منعك قال دخلتُ البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني . وحجَّ المهدي
فمرَّ ببلاد بني جعفر فقالت امرأةٌ منهم أيُّ شرفٍ وجمال لو أن الله دَعَمَهُ بأُمَّ
جعفرية . وقال يحيى بن خالد العقلُ خادمٌ للجَهْل . وقال بعضهم في رسالة
وحصن الله وليه وأوقع بأسه بجُرثومة الضلال ومُناخ الشرك ومركز الظلم بعد
طول الإملاء وقلة المراقبة والارعواء . وقال آخر الاستطالة لسان الجهالة .
وقال ذو الرياستين الطُّبُّ استدامة الصِّحة ومَرَمة السقم . وكتب ابن مُكْرَم في
تعزيتة أحمد بن دينار بأخيه ليس لأهله وولده مرجعٌ إلى غيرك ولا مَقِيلٌ إلا في
ظِلِّكَ فأنشُدك الله فيهم فإنه خربهم بعمارة مروته . ولإبراهيم بن العباس في
بعض كتبه إن أحقَّ من أشاد بنعمة ناطقاً بلسان شُكرها من ألس من نعمة أعزُّ
ملايسها وحبي أفضل مواهبها كتبتُ إليك وأمير المؤمنين من لين الطاعة
وأتساق الكلمة ممن في بلدانه وحواشي سلطانه على ما يحمد الله عليه
ويستريده منه . وقال يحيى بن خالد الشكرُ كفاءُ النعمة . ولبعضهم فأتيتك حين
أنفد الصبرُ مدته وبلغ المكروه غايته ولم يبق من الستر إلا ما يشفُّ دونه .
ولبعضهم في رسالة إن شدة الحجاب تُنغل أديم المودة . ودخل أبو سعيد
المخزومي على إسحق بن إبراهيم المصعبي فأنشده قصيدة وكان حسنَ
الإنشاد ثم دخل بعده الطائي فأنشده وكان رديء الإنشاد فقال المصعبي
للطائي لو رأيت المخزومي وقد أنشدنا أنفاً فقال الطائي أيها الأمير نشيد
المخزومي يُطرقُ بين يدي نشيدي . وحدثني أبو عبد الله قال قال الحسن بن
سهل خريز الماء لحنُ العمارة . ولأعرابي في البرق [من الطويل] :
إذا شيم أنف الليل أوفض وسطه سناً كابتسام العامرية شاعفُ

وقال أبو نواس [من الكامل] :
صهباءُ تفتَرِسُ العُقُولَ فما تَرى

منها بهنَّ سِوى السُّبَاتِ جِراحا

وقال آخر [من الكامل] :

أمَّا الطُّلُولُ فمُخْبِرَاتُ
أَحَدْتَنِي الأَحْزَانَ حِينَ
فَتَرَكْنَ فِي قَلْبِي النُّدُوبَا
أَنَّهُمْ ظَعَنُوا قَرِيبَا
وَقَفْتُ فِيهَا وَالْكُروبا
وَزَرَعْنَ فِي رَأْسِي المَشِيبَا

وقال أبو الشيص [من الخفيف] :

رَبْعُ دارِ مُدْرَسِ العَرَصَاتِ
خَفَقَ الدَهرُ فَوْقَها بَجانِحِينَ
وَطُلُولِ مَمْحُوءَةِ الأَيَاتِ
مَرِيشِينَ بِالِبلَى والشَتَاتِ

وقال سليمان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة [من الكامل] :
يَتَبَعْنَ جَاهِلَةَ الزِمَامِ كَأَنَّها
إِحدى القناطرِ وَهِيَ حَرْفٌ ضامِرٌ

وقال أبو نواس [من الكامل] :

فِي مَجْلِسِ ضَحِكِ السَرورِ بِهِ
عَن نَاجِذِيهِ وَحَلَّتِ الخَمْرُ

وقال مسلم [من الطويل] :

فأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصُّبا
قَطَفْتُ بِأَيْدِيها ثَمارَ نُحورِها
وقد فَاجَأَتْها العَيْنُ والسُّتْرُ واقِعُ
كأَيْدِي الأَسارِي أَنفَلَتْها الجَواِمِعُ

وقال أشجع [من الطويل] :

وجارِيَةٍ لَمْ تَسْرِقِ الشَّمْسُ نَظْرَةَ
إِلِها وَلَمْ يَعبَثْ بِأَيامِها الدَهرُ

وقال العتابي [من الطويل] :

وَمُعْضِلَةٍ قامَ الرَبِيعُ إِزاءِها
لِيَعْمِدَ رُكْنَ الدِينِ لَمّا تَهَدَّمَا

غداة عداة المُلِكِ شاحِذَةُ المُدَى عليه وغولُ الحربِ فاعرةٌ فما

وقال [من البسيط]:

بصفحة الدين من نجواهم نَدَبُ
مُضَرَّجٍ بِدَمِ الإِسْلامِ مُخْتَضِبُ
إِنَّ البَرَامِكَ لا تَنْفُكُ أَنْجِيَةً
تَجَزَمَتْ حِجَجِ عَشْرٍ وَمُنْصَلُهُمْ

وقال [من الطويل]:

وَمِنَ فَوْقِ أَكْوارِ المِطايَا بُبانة
فَتَى ظَفِرَتْ مِنْهَ اللَّيالي بِزَلَّة
أَجَلٌ لَها أَكَلُ الدُّرَى والغوارِبِ
فأَقْلَعَنَ عَنه دَاميَاتِ المِخالِبِ

وقال [من الكامل]:

ناهَضْتُ بِالحَسَنِ بنِ عِمْرانِ العُلَى
سَكَتاهُ عِدَّةٌ وَفي نِطقاتِهِ
وَتَنبَّهْتُ لِذِكاائِهِ آمالي
تَفريقُ بَينِ قَرائِنِ الأُمُوالِ
لَمَّا لَجَّاتُ إِلى ذُراكِ وَأَشْرَفَتْ
عُنُقُ مِنَ الحِداثِ قَلتُ نَزالِ

وقال النَّمريُّ لِلرَشيدِ [من الوافر]:

مَنَنْتَ عَلَيَّ ابْنَ عِبدِاللهِ يَحْيى
وَقَدِ سَخِطْتُ بِسُخْطِكَ المَنايا
وَكانَ مِنَ الحِثُوفِ عَلَيَّ شَفييرِ
فَظَلَّتْ فَهَيَّ حائِمَةُ النُّسُورِ
لَهُم رَجِمٌ تَصورُكُمْ عَلِيهِم
وَكَاسِرٌ عَنكُمْ حُمةَ النَكييرِ

وقال يَصفِ بَغدادَ [من البسيط]:

تَحيا النُفوسُ إِذا أرواحُها نَفَحَتْ

وَحَرَّشَتْ بَينَ أوراقِ الرِياحِينِ

وقال العَبَّاسُ بنِ الأَحْنَفِ [من البسيط]:

قَدِ سَحَبَ النَاسُ أَذيالَ الظُّنونِ بنا
فَكَاذِبٌ قَدِ رَمى بِالظَّنِّ عَيرُكُمْ
وَفرَّقَ النَاسُ فِينا قَولَهُم فَراقا
وَصادِقٌ لَيسَ يَدري أَنه صَدَقا

وقال محمود الوراق [من الوافر]:

أإن ناصي سواد الرأس شيبُ فزِغَتْ إلى التعلُّلِ بالخضابِ
ألم تعلمَ وفرطُ الجهلِ أولىُ بمثلِكَ أنه كَفَنُ الشبابِ

وقال أشجع [من الطويل]:

تَعْضُ بأنيابِ المَنايا سيوفُه وتَشْرَبُ مِن أخلافِ كُلِّ وريدِ

وقال بشر [من الطويل]:

تَبَعَتْ عَطاياهُ مواهبةَ كالسَّيْلِ مُتَبِعاً قفا مَطْرَةٍ

وقال [من المتقارب]:

صَبَبَتْ هَواكِ على قلبِه فضاقَ وأعلَنَ ما قَدْ كُتِمَ
وَبَيضاءِ يَضْحَكُ ماءُ الشَّبَابِ في وَجْهِها لَكَ أو يَتَسِمُ
ألا أَيُّها السائلي جاهلاً ليَعْرِفني أنا أنفِ الكَرَمِ
نَمَتْ في الكِرامِ بني عامرٍ فُروعي وأصلي قُرَيْشُ العَجَمِ

وقال [من الوافر]:

شَرِبْنَا مِن فُؤادِ الدنِ حتى تَرَكْنَا الدنَّ ليس له فُؤادُ

وقال محمد بن أحمد من ولد طباطبا العلوي الإصفهاني [من

المنسرح]:

رُبَّ نَهارٍ أمستَ أصائلُه تَرشُفُ من شَمسِهِ صُباباتِ

وقال محمد بن يزيد من ولد مسلمة بن عبد الملك يصف فرسه [من

الكامل]:

عَوُّتُه فيما أزورُ حَبائِبِي إهمالُه وكذلك كلُّ مُخاطرِ
فإذا احتبى قَرَبوسُه بَعنانِه عَلَكَ الشكيمَ إلى انصرافِ الزائرِ

وقال أبو العتاهية [من المديد]:

رَاكِبُ الْأَيَّامِ يَجْرِي عَلَيْهَا وَلَهُ مِنْهُنَّ يَوْمٌ حَرُونُ

وقال أبو نواس السابق في ميدان الشعراء [من الرجز]:

يَغْتَالِ خِزَانَ الصَّحَارَى الرَّقْطَا يَلْقَيْنَ مِنْهُ حَاكِمًا مُشْتَطًّا
لِلْعَظْمِ حَطْمًا وَالْأَدِيمِ عَطًّا

وقال [من الكامل]:

عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ

وقت [من الخفيف]:

إِسْقِنِي الرَّاحَ فِي شَبَابِ النَّهَارِ وَأَنْفِ هَمِّي بِالْخُنْدَرِيسِ الْعُقَارِ
فَكَأَنَّ الرِّيْعَ يَجْلُو عَرُوسًا وَكَأَنَّآ مِنْ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ

وقال أبو الشيص [من الطويل]:

سَقَانِي بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ شَابَ رَأْسُهُ غَزَالٌ بِحِنَاءِ الزَّجَاجَةِ مُخْتَضِبُ

وقال الخريمي يذكر الإبل [من الطويل]:

وَكَمْ خَبَطَتْ مِنْ فَحْمَةٍ لِذُجْنَةٍ

وَحُمْرَةٍ وَهَاجَ عَنِ الصَّيْفِ جَاجِمِ

وقال أبو نواس [من الكامل]:

عَيْنُ الْخَلِيفَةِ بِي مَوَكَّلَةٌ عَقَدَ الْجِدَارُ بِطَرْفِهَا طَرْفِي
صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ وَأَرَى دِينَ الضَّمِيرِ لَهُ عَلَى حَرْفِي
فَلَيْنَ وَعَدْتُكَ تَرْكَهَا عِدَّةً إِنِّي عَلَيْكَ لَخَائِفٌ خُلْفِي
سَلَبُوا قِنَاعَ الطِّينِ عَنِ رَمَقِي حَيَّ الْحَيَاةِ مُشَارِفِ الْحَتْفِي
فَتَنَفَّسْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ كَتَنَفُّسِ الرِّيحَانِ فِي الْأَنْفِي

وقال في الفرس [من الكامل]:

يَبِينِي الْعَجَاجَ عَلَى مَفَارِقِهِ بِمَقْعَبٍ لَمْ يَعُدْ أَنْ وَقَّحَا

وقال العلويّ الإصفهاني ابن طباطبا [من الخفيف]:

صَدَفْتُ شَقًّا عَنِ لَالِيءِ غُرِّ

أَمْ كِتَابٌ قَدْ فُضَّ عَنْ نَظْمِ شِعْرِ

وَقَوَافٍ مُقَوِّمَاتٍ لَدَى الْأَبْيَاتِ

مَوْزُونَةٍ بِقِسْطِاسٍ فِكْرٍ

وقال الطائيّ [من الكامل]:

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ النَّضَارَةِ يُمِطُّ

وقال [من البسيط]:

أَمْطَرْتَهُمْ عَزَمَاتٍ لَوْرَمِيَّتٍ بِهَا

يَوْمَ الْكَرِيهَةِ رُكْنَ الدَّهْرِ لِأَنْهَدَمَا

حَتَّى انْتَهَكْتَ بَحْدُ السَّيْفِ هَامَهُمْ

جَزَاءً مَا انْتَهَكُوا مِنْ قَبْلِكَ الْحَرْمَا

وقال يخاطبُ منزلاً [من الكامل]:

يَا مَنْزَلًا أَعْطَى الْحَوَادِثَ حُكْمَهَا لَا مَطْلَ فِي عِدَّةٍ وَلَا تَسْوِيفَا

أَرْسَى بِنَادِيكَ النَّدَى وَتَنْفَسْتَ نَفْسًا بِعَقْوَتِكَ الرِّيحُ ضَعِيفًا

وَلَيْنُ ثَوَى بِكَ مُلْقِيًا بِجِرَانِهِ ضَيْفُ الْخُطُوبِ لَقَدْ أَصَابَ مَضِيفًا

المعنى أنه أصاب موضعاً يضيف إليه فيه أي يميل إليه لأن أهله قد

فارقوه ومضيفٌ مُحالٌ لأنَّ البلد لا يضيف ولأنَّ الزمان لا يحتاج وإنما المعنى

أنَّ الزمان مال عليك فأصاب موضع محلٍّ ومنزلٍ .

وقال [من الكامل]:

يا سَهْمُ كَيْفَ يُفِيقُ مِنْ سُكْرِ الْهَوَى
حَرَّانُ يُضَبِّحُ بِالسِّفْرِاقِ وَيُغْبِقُ

عمري لقد نَصَحَ الزمانُ وإنَّهُ لَمِنَ الْعَجَائِبِ ناصِحٌ لا يُشْفِقُ
نصح الزمان أي أدبك بما يُريك من غَيْرِهِ واختِلافِهِ والزمان لا يُشْفِقُ
على أَحَدٍ لأنَّهُ يأتي على الإنسان بما يُقْضَى عليه فقال من الْعجائب أن
يضحك الدهر وهو لا يُشْفِقُ . وقال [من الطويل]:

كُلُوا الصَّبْرَ غُضًّا واشربوه فإِنَّكُمْ
أثَرْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ وَالظُّلْمُ بَارِكُ
مَتَى يَأْتِكَ الْمَقْدَارُ لا تَكُ هالِكاً
ولكن زمانُ غَالٍ مثلكَ هالِكُ
وقال العباس بن الأحنف [من البسيط]:

ولى جُفُونَ جفَهاها النَوْمُ فاتَّصَلَتْ
أعْجَازُ دَمْعٍ بِأَعْنَاقِ الدَّمِ السَّرِيبِ

وهذا وأمثاله من الاستعارة مِمَّا عَيَّبَ من الشعر والكلام وإنَّما نُخِيرُ
بالقليل ليعرف فَيُتَجَنَّبَ . قال المهلب لرجل من الأزد متى أنت قال أكلتُ من
حياة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ سَتِينَ فقال أَطَعَمَكَ اللهُ لِحْمِكَ . وقال
عبيد الله بن زياد يوماً وكانت فيه لُكْنَةٌ افْتَحَوْا سِيفِي يَرِيدُ سُلوهُ فقال يزيد بن
مُفَرِّغٍ [من الوافر]:

ويومَ فَتَحْتَ سِيفِكَ مِنْ بَعِيدِ أَضَعْتَ وَكُلُّ أَمْرِكَ لِلضُّياعِ
وقال عبيد الله أيضاً لسويد بن منجوف اقْعُدْ على اسْتِ الأَرْضِ فقال
سويد ما أعلم للأرض استاً . وقال الجاحظ رأى قومَ مع رجلٍ خُفَّأً فقالوا ما
هذا فقال قلنسوة فضحكوا منه فقال عياض صدق هذه قلنسوةُ الرَّجُلِ . وقال

بعضهم في يومٍ مطرٍ شديدٍ قد انقطع شريان الغمام . وقال بعض أهل زماننا
في مخاطبته لصاحبه يا إمامَ الخطباءِ ويا عنصرَ الخُلصاءِ ومولى الأدياءِ .
ولعليّ بن عاصمِ العبديّ الإصفهانيّ [من الكامل]:

زُمَّ العَزَاءُ غِدَاةَ زُمِّ جِمَالِهِمْ فحَدَا الحُدَاةُ بِهِ مَعَ الأَجْمَالِ
والحَادِثَاتُ مَتَى فَغَرْنَ بِغُصَّتِي لَقَمْتُهُنَّ شَجَاً بَوَخْدِ جِمَالِ

وقال آخر [من الطويل]

خُطوبُ المَنَايا صرّحتْ عن مواهبِ

مواهبِ أجِرٍ من نِتاجِ المصائبِ

وقال الطائيّ [من الخفيف]:

فَضَرَبَتِ الشُّتَاءُ فِي أَحْدَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا رَكُوبَا

ومن عجيب هذا الباب قول الكميّ [من الطويل]:

ولَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَقلِبُ ظَهْرَهُ

على بطنه فِعْلَ المُمَعِّكِ فِي الرَّمْلِ

كَمَا طَعَنْتُ عَنَّا قِضَاعَةَ طَعْنَةً

هي الجِدُّ مَادُومُ النَحِيْزَةِ بِالْهَزْلِ

٢ - من كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن
الكتاني المتوفي سنة ٤٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب :

١ - باب من التشبيهات في السماء والنجوم والقمرين

قال عبادة بن ماء السماء الانصاري :

كأن السماء قبةً من زُمُرْدٍ وفيها الدراري من عقيقٍ مَسَامِرُ

وقال عباس بن ناصح يصف مغيب الشمس :

وشمس النهارٍ قد هَوَتْ لمغيها كعذراء تبغي في الحجالِ التواريا

وقال سعيد بن عمرو بن في الهلال^(١) :

والبدرُ في جوِّ السماءِ قد انطوى طرفاهُ حتَّى عاد مثلَ الزورقِ
فتراهُ من تحتِ المُحاقِ كأنما غرقَ الجميعُ وبعضُهُ لم يَغْرَقِ

وقال محمد بن خطّاب النحوي :

ربُّ ليلٍ جُبْتُه في فتيةٍ كسيوفِ الهندِ أو زُهرِ النجومِ
طلعَ البدرُ به في صورةٍ تشبهُ التاجَ على الشُّعرِ البهيمِ

(١) ورد البيتان في اليتيمة ٢ : ٤٥ ، والنفح ٥ . ١٢٩ لسعيد بن محمد المرواني ، وهما شخص واحد ، انظر التراجم في آخر الكتاب .

وقال يحيى بن هذيل في الهلال :

يحكي من الحاجب المقرون شُقرتهُ
لو التقى لحكي حَجْلاً ولو قطعوا
فانظرُ إليه فما أخطا ولا كادا
من دارة الحجلِ ما أربى ولا زادا

وقال جعفر بن عثمان في الثريا^(١):

سألتُ نجومَ الليل هل ينقضي الدجى
وما عن جوى^(٢) سامرتها غير أني
فخطتُ جواباً بالثريا كخطُ « لا »
أنافسها المجرى إلى رُتبِ العلا

وقال عبادة:

ربَّ ليلٍ سَهَرْتُ في قمرٍ
والثريا كأنها سُئِلَتْ
مدَّ من فَرَحَةٍ عليه حُلَى
فأجابتُ عن الحبيبِ بلا

وقال جعفر بن عثمان :

صفِ الثريا بمثلها صفةً
سماؤها في اعتدالِ خضرتها
فقلتُ : قرطُ فصوله العنبرُ
زمرُّدٌ والنجومُ فالجواهر

وقال أيضاً :

وكانُ أثناءَ الثريا إذ بَدَتْ
وكانما لَبَسَ السماءَ ملاءةً
قرطُ طريحُ في بساطِ زمرُّدٍ
خضراءُ تُرصفُ من جمالِ العسجدِ

وقال عيسى قرلمان ، وكان القمر على الجوزاء :

أرى أَرْجُلَ الجوزاءِ غيرَ بوارحٍ
وهمتُ ولم تمضِ السيلُ كأنها
وأيدي الثريا كالسقيمِ صحيحها
من الأينِ صرعى أنختها جروحها
وللبدرِ إشراقٌ عليها كأنه
رقيبٌ على الأيتمِ جنوحها

(١) البيتان في الحلة ٩ : ٢٥٩ وبينهما بيت .

(٢) الحلة : هوى .

وقال محمد بن الحسين :

والجوُّ أزرُقُ والنجومُ كأنها
وكانما الجوزاء فيه تقلَّدتْ
ذَهَبٌ تسربلٌ^(١) لازورداً أزرَقاً
سيفاً، حمائلُهُ المجرَّةُ، مُعَرَقاً

وقال طاهر بن محمد يذكر جملة من النجوم :

وليلٍ بتُّ أكلُوهُ بهيمٍ
كأن سماءَهُ بحرٌ خضمٌ
كأن نجومَهُ الزُّهْرَ الهوادي
كأن المستسرة في ذراه
كأن النجمَ مُعترضاً وُشاةً
كأن كواكبَ الجوزاءِ شَرَبٌ
كأن الفرقَدينِ ذوا عتابٍ
كأن المشتري لما تعالَى
كأن الأحمر المريخَ مُغضٍ
كأن بقيةَ القمرِ المولَى
كأن على مفارقه غراباً^(٢)
كساءَ الموجِ ملتطماً حباباً
وجوهٌ أخضَلتْ تبغي الثواباً
كمائنٌ غارةٌ رَقَبتْ نهاباً
تُسارقُ فيه لحظاً مستراباً
تعاطيهم ولائدُهم شراباً^(٣)
أجلاً طولٌ ليلهما العتاباً
طليلةٌ عسكرٍ خَسُوا ارتقاباً^(٤)
على حَنقٍ يشبُّ به شهاباً
كثيبٌ مدنِفٌ يشكو اجتناباً

وقال يوسف بن هارون :

وأنسني فيك النجومُ برعيها
كأن سماءَ الأرضِ نِطْعُ زُمُرِدٍ
فدريُّها حَلِيٌّ وبدر الدجى إلفي
وقد فُرِشتُ فيه الدنانيرُ للصرفِ

وقال المهزله :

وكانما زُهرُ النجومِ كواعبٌ
حَسَرَتْ فأبدتْ في الشعورِ بياضها

(١) في هامش النسخة : تسربل الرجل أي نس القميص .

(٢) أكلُوهُ : أَرعاه .

(٣) الولائد : الأماء والجواري .

(٤) الأصل : حبسوا ارتقاباً .

وكانما فيها الخفية أعينُ نظرتُ^(١) وسابق فتحتها إغماضها

وقال محمد بن إبراهيم بن الحسين :

وسعى علينا بالكؤوسِ مُنطقُ أجرى دمي فأعاضَ راحاً من دمِ
حتى بدا لي المشتري وقربنُهُ المريحُ يرفلُ في غلالةِ عَنَدَمِ^(٢)
قال النديمُ فصفهما قلت : استمع رمحانِ في كَفِّي كَمِّي مُعَلَمِ
تبعَ الكميُّ بذا فأخطأ طعنه وأصابه هذا ففيه دمُ الكمي

المعلم : الذي لبس من السلاح وغيره ما يعلم به .

وقال ابن هذيل :

وكانَ المقاتلُ اغتَاطَ حتى أنفَذَ الصُّبْحَ بالتقحم طعناً^(٣)
والسهى في بناتِ نعشٍ ضميرٌ^(٤) بين أضلاعها تبواً كِنَا

السهى : الكوكب الخفي في بنات نعش .

وقال سعيد بن عمرو بن النجوم :

وكانها في الحسنِ روضةٌ نرجسِ تفتُرُ في رَوْضٍ من النَمَامِ
وكانما أعلى البروجِ هياكلُ محفوفةٌ بمصباحِ الإِظلامِ
وكانما صغرى النجومِ يواقتُ يجري بهنَّ عُبَابُ بحرِ طامِ

وقال أحمد بن دراج^(٥) :

(١) الأصل : قطرت .

(٢) العندم : صبغ أحمر وقيل هودم الغزال أودم الأخوين .

(٣) المقاتل هنا : صفة لنجم ولعله السماك الرامح ، أو هو سهيل كما صوره المعري من بعد

« مستبد كأنه الفارس المعلم »

(٤) الأصل : صهير .

(٥) ديوان ابن دراج . ٣٠٠ والأبيات من رائيته التي اشتهرت عند المشاركة وفيها يعارض أبا نواس ،

ومطلعها

وقد حَوِّمَتْ زُهُرُ النجومِ كأنها
ودارتْ نجومُ القطبِ حتى كأنها
وقد خَيَّلَتْ زُهُرُ المجرَّةِ أنها
وقال سعيد بن عمرو:

كواعبُ في خُضْرِ الحداثِ حُورُ
كؤوسِ مهأَ وافى بهنَّ مديراً^(١)
على مَفْرِقِ الليلِ البهيمِ قتيراً^(٢)

والليلُ في لونِ الغرابِ كأنه
وكأنما ذاتُ الخضابِ وقد هَوَتْ
وكأنما الشعري العبورُ وراءها
وكأنما أشخاصها قد أفرِغَتْ
٢ - باب في ابلاج^(٥) الصبح

مُتَدَرِّعٌ بمدارعٍ مِنْ قار
رامشنةٌ رُصِدَتْ مِنَ النوارِ^(٣)
ذَهَبٌ تدحرجُ فهو كالدينار
في الماءِ ياقوتاً على بُلَّارٍ^(٤)

قال يوسف بن هارون^(٦):

وكم ليلةٌ قد جَمَعْتَنَا وأذْبَرَتْ
إلى أن بدا وجهُ الصبحِ كأنما
وقال المهند:

تنوحُ على تفريقنا وتَلْهَفُ
تَحْمَلُ لِقمانُ وأقبلَ يوسفُ^(٧)

وكانَ وَجْهَ الفجرِ وَسَطَ سماءِهِ

من سودِ أوديةِ الظلامِ أعاضها

فتنجد في عرضِ الفلا وتغور

= دعي عزمات المستصام تسير

(١) المها : البلور .

(٢) القتيير : الشيب .

(٣) الرامشنة : ورقة آس لها رأسان .

(٤) البلار : أراه لغة في البلور ولم يشته صاحب اللسان .

(٥) الأصل : ابلاج .

(٦) لعلَّ البيتين من قصيدته « على كمدي تهمي السحاب وتذرف » وهي من قصائد السجن ، انظر

المطمح : ٧٣ والنفع : ٥ : ١٨٣ .

(٧) ذكر لقمان لطول العمر والسواد فشبه بذلك الليل ، وذكر يوسف لجماله وقرن به طلوع

الصبح

خود ألمَّ بها الأسى في أزرقٍ برزت فشقَّ حُزْنُها فضفاضها
وقال علي بن ابي الحسين :

لاحظ ظلام الدجى والصبح يُخفِّرةً كأنه جيشُ رومٍ يهزِمُ الحَبْشا
وقال حبيب بن أحمد :

قد أعتدي والظلامُ منتشرٌ على جميع البلادِ عسْكَرُهُ
والصبحُ حيرانٌ فيه مستترٌ كمجرمٍ هُمُّهُ تَسْتُرُهُ
وقال يوسف بن هارون :

بدا الصبحُ من تحتِ الظلامِ كأنه

خوافي^(١) جناحي هَيْقَلٍ^(٢) باتَ حاضناً

ولاً فكالثوبِ السماويِّ مُعلماً شقيقاً بدا في أسفلِ الثوبِ بائناً
وقال أحمد بن عبد ربه :

حتى إذا ما الليلُ قَـوضَ راجلاً عندَ الغَلَسِ
ويدا الصباحُ كغرةٍ تبدو على وجهِ الفرسِ

وقال عباس بن فرناس :

فبتنا وأنواعِ النعيمِ ابتذالنا ولا غيرَ عينيها وعيني كالي^(٣)
إلى أن بدا وجهُ الصباحِ كأنه جبينُ فتاةٍ لاحَ بينِ حجال^(٤)

(١) الأصل : مخافي .

(٢) الأصل : هيق - وهو ساكن الياء - ولا يصح به الوزن ، والهيقل كالهيق : وهو ذكر النعام .

(٣) كالي : مراقب .

(٤) الحجال : جمع حجلة وهي مثل القبة تتخذ للمروس .

٣ - باب في الريح

قال وهيب بن البديهي^(١):

وريحٍ جرياءٍ^(٢) صاحبتنا
تغوص على البراقع والحشايا
لها في الوجه رشق كالنبال
كغوص الطيف في ستر الحجال

وقال الحسن بن حسان:

فجبت بساط الأرض لم أك سامعاً
كأن حين الريح في جنباته
به عند شدو الجن هتفاً إلى هتف
حين المثاني والمثلث في العزف

وقال ابن هذيل أيضاً:

ودنت في هبوبها مشية النشوان حيران بالمدمام الشمول
لصقت بالثرى كما يخضع العاشق ذلاً إلى الحبيب المطول
واختفت عن فواطن^(٣) الخلق حتى شبهوها ضالةً بنحول^(٤)

وقال ابن هذيل :

للصبا منة على الروض هادته
وجرت بينه رواحاً ليرتاح
بطيب الحبيب أي ذمام
ويبقى على رضى والتئام
كالشفيق الذي يؤلف ما بين
حبيبين بعد قطع الكلام

(١) في البيتمة شاعر اسمه محمد بن وهيب البديسي (٢: ٦٠).

(٢) الأصل : حربتا ؛ والجرياء : الريح التي تهب بين الجنوب والصبأ ، وقيل هي الشمال وقيل هي النكباء التي تجري بين الشمال والدبور .

(٣) الأصل : قواطن .

(٤) كذا ولعله : بنحيل .

وقال أيضاً :

وَمُرْنَةٌ بَعْدَ الرُّوْحِ كَأَنَّمَا
قَرَبْتُ مِنَ الْأَسْمَاعِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ
فَإِذَا التَّقَى جَمُورَهَا فِي دُوْحَةٍ
وَإِذَا اسْتَقَلَّ قَتَامَهَا^(١) فَكَأَنَّمَا
فِي نَحْرِهَا صَوْتُ الْقَرِيْعِ الْهَادِرِ
مِنْهَا وَغَابَتْ فِي الْهَبُوبِ الْحَاضِرِ
فَكَأَنَّ فِيهَا كُلَّ لَيْثٍ هَاصِرِ
فِيهِ التَّفَافُ عَسَاكِرٍ بَعْسَاكِرِ

القرية : الفحل من الإبل ، والقرية أيضاً سيد القوم .

وقال علي بن أبي الحسين :

خَلِيلِي مَا لِي كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا
أَكَلَفْتُهَا حَمْلَ السَّلَامِ الْيَكْمِ
كَأَنَّ الصَّبَا عِنْدِي رَسُولٌ مُبْلَغٌ
إِذَا كَدْتُ أَنْ أَسْلُوَ أَجْدُ صَبَابَتِي
أَحْنُ إِلَى الْأَفْقِ الَّذِي تَتِيَّمُ
فَإِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَيْكُمْ فَسَلِمُوا
أَبُوحُ بِأَسْرَارِي إِلَيْهِ فَيَكْتُمُ
كِتَابُ حَبِيبٍ أَوْ خِيَالُ مُسَلِّمِ

وقال أيضاً :

عَزَّتْنَا الْمُزْنُ وَالرَّايَاتُ دَجْنُ
شِمَالٌ قَدْ تَبَارِيَهَا قَبُولُ
بِأَجْنَادٍ عَلَيْهَا قَائِدَانِ
كَأَنَّهُمَا مَعًا فَرَسًا رَهَانِ

وقال أحمد بن فرج^(٢) :

وَرُبَّتْ رِيحٌ اِمْتَزَجَتْ بِنَفْسِي
وَجَدْتُ لَهَا وَبِي لِلشُّوقِ مَا بِي
وَبَاتَ ثَرَى الْعَقِيقِ يَنْمُ عَنْهَا
إِلَيَّ بِمِثْلِ أَنْفَاسِ الْغَوَالِي^(٤)
مِزَاجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ الزُّلَالِ
كَمَا وَجَدَ الْمَهْجَرُ بِالظَّلَالِ^(٣)

(١) الأصل : قيامها ، والقنم : الغبار .

(٢) الأصل : فرج - بالمهملة .

(٣) المحجر : الذي يسير في الهجرة .

(٤) الغوالي : جمع غالية وهي نوع من الطيب مركب من أحلاط .

فقل في نشوة من نفح ریح
سرى في نار أشواقي سراها

سُقیتُ بها الشَّمولُ من الشمال^(١)
إلى جَدْبِ الثرى بحيا العزالي^(٢)

٤ - باب في البرق والرعد

وقال أحمد بن فرج :

وليلتنا بالغور أومض بارق
سرى مثلما يسرى الهوى في جوانحي
ولاح كأمثال البرى خطمت به
وباتت دياجي الليل منه كأنها

حَثِيثُ الجناحِ مثلُ ما نَبَضَ العِرْقُ
بثنتين من أحواله النارُ والخفق
من الغيم في ليل السرى أينق ورق
أحاييش في أيديهم الأسل الزرق

البرى . جمع برة ، وهي الحلقة التي تحمل من الوبر أو من الجلد ، يقال أبرى البعير يبريه
ابراء وهو بعير مبري ، والبرى أيضاً : الخلاخل ، واحدتها برة ، وتجمع برين وبرين . (٣)
والورق : جمع أورق ، وهو لون بين الخضرة والسواد ، يقال : جمل أورق بين الورقة ، وهو اتم
الوان الإبل عند العرب واطيها لحماً .

وقال سليمان بن بطال المتلمس :

وأرى خلال الليل مبسم بارق
فكأنه من أضلعي متوقد
وكان محبوبي تبسم فوقه

كالزئد يُقَدِّحُ أو ضرام العرفج
في الجو إلا أنه لم يوهج
ليزيد بالإيماض في شجو الشجي

وقال يوسف بن هارون :

كان اندفاع البرق بين رعوده
تطائر نار لاصطكاك جنادل

(١) الشمول : الخمر .

(٢) الحيا : المطر ؛ العزالي : جمع عزلاء ، وهي فم المزادة من أسفلها .

(٣) أي بضم الباء وكسر ها .

أو أسدُ الشَّرَى في مُذْهَبَاتِ سلاسلٍ
إذا هي دارت نُهَيْهَتْ في السلاسل (١)
كأنَّ بناتِ الزنجِ (٢) فيها مشيرةٌ إلى الأرضِ عن أكمامِ حُمْرِ الغلائلِ
وقال أحمد بن درَّاج (٣):

يحدو وَيَسِيمُ بَرْقُهُ فَتخَالُهُ
تَمْرِي البوارقِ وَبِلَهُ فَكانَها
مَلَكاً سَطاً بِالرَّعْدِ والإِيعادِ
رَشَقٌ أُصِيبَ به ذُوو إِمْرادِ
وقال مروان بن عبد الرحمن (٤):

فكانَ الغمامَ صَبُّ عَمِيدُ
وكانَ البروقَ نارُ جِواهُ
أَنَّ بِالرَّعْدِ حُرْقَةً واشتِكاءُ
والحِيا دَمْعُهُ يَسِيلُ بكاءِ
وقال المهند:

أقْلوبُ العَشَّاقِ ذاكِ السومِضُ
أم جنودُ دُكُنُ السراييلِ سُلَّتْ
أم عروقُ يَجوولُ فيها بُبُوضُ
نشأتُ مثلما جرى الماءُ من شَتَى
للقاءِ فيها سِيوفُ بِيضِ
وأضاءتِ والرعدُ فيها كما أجَلَبَ
فَفَصَّتْ - لما تَلافَى - الأروضُ (٥)
مَوْجُ فلاحِ فيه ومِيزِ
وقال ابن هذيل (٦):

(١) نهيهت : زجرت وصيبح بها .

(٢) الأصل : الريح .

(٣) لم يردها في ديوانه .

(٤) الأصل : عبد الملك ، وهو خطأ ، ومروان بن عبد الرحمن هو الملقب بالطلق ، انظر

التعليقات ؛ والبيتان في الحلة ١ : ٢٢٤ ، نقلًا عن كتاب التشبيهات لابن أبي الحسين .

(٥) شتى : يعني مصادر شتى ، إلا أن تكون الكلمة مصحفة ؛ الأروض : جمع أرض .

(٦) البيتان في اليتيمة ٢ : ١٤ من قطعة فيها سبعة أبيات .

ولقد شَفَّنِي فَأَسْهَرَ طَرْفِي لَمَعُ بَرْقٍ يَرْفُ^(١) فِي لِمَعَانِهِ
شَمْتُهُ وَالظَّلَامُ يَفْتَرُّ عَنْهُ كَافْتِرَارِ الزَّنْجِيِّ عَنِ أَسْنَانِهِ
وقال أيضاً :

كَلَّفْتُهَا طَوْلَ السُّهَادِ فَرَاقَبَتْ
بَرْقاً يَلُوحُ وَتَارَةً يَتَسْتَرُّ
وَكَأَنَّ لَيْلِي فَارِسٌ فِي كَفِّهِ
رُوحٌ يُقَلِّبُهُ، عَلَيْهِ مِغْفَرٍ
تَبْدُولُهُ شُعَبٌ، تَطِيرُ أَمَامَهَا
شُعْلٌ، تَطِيرُ لَهَا الْقُلُوبُ وَتُدْعَرُ
وَيَرُوعُ عَنِ قَبْضِ السَّحَابِ وَمِضُّهُ
فَكَأَنَّهُ فَرَسٌ مُعَارٌ أَشْقَرُ

وقال حسب بن أحمد :

أَلَا هَلْ رَأَتْ عَيْنَاكَ إِيمَاضَ بَارِقٍ
بَدَا مَوْهِنَاً فِي الْجَوِّ بَيْنَ سَحَابِهِ
كَمَا قَلَّبَ الْقَيْنُ الْحَسَامَ وَرَدَّهُ
عَلَى عَجَلٍ فِي جَفْنِهِ وَقَرَابِهِ
كَأَنَّ التِّي مِنْ أَرْضِهَا لَاحَ وَكَلَّتْ
بِهِ بُخْلَهَا فِي جَيْئِهِ وَذَهَابِهِ
وقال المهند :

تَكشَّفَ كَالْأَبْلَقِ الطَّافِرِ وَهَمَّهُمَ كَالْبَازِلِ الْهَادِرِ
كَأَنَّ فَوَادِيَّ فِي خَفْقِهِ وَعَيْنِي فِي عَيْنِهِ الْمَاطِرِ
وقال ابن الخطيب :

(١) اليتيمة : يزف .

يا هَلْ ترى البرقَ بَدَا كالمُنْضَلِ
هَزَّتُهُ بالخبرةِ كَفُ الصيقلِ
أو كسنانٍ في عَجاجٍ^(١) القَسْطَلِ
أو كضرامِ جَمْرِ نارِ المصْطَلِ
أضرمها في جُنْحِ ليلِ الأَيْلِ
أو مثل ما لَوَّحَتْ بالسَّجْنَجَلِ^(٢)
مقابلاً للشمسِ غيرَ مُؤْتَلِ^(٣)
أو كابتسامِ لكعابِ عَيْطَلِ^(٤)
عن واضحِ أَشْنَبِ عذبِ المنهلِ
أو مثلها في جيدها من الحلي
أو نحوها لاحِ لِعَيْنِ^(٥) المجتلي
بدا^(٦) يُنيرُ كشهابٍ مُشعلِ

٥ - باب في السحاب والمطر

قال يوسف بن هارون :

وَسُفْحِ كأكبادِ العدا أو كأنها
كتائبُ زَنْجٍ فَوْقَ أَدْهَمِ^(٧)
كأنَّ سلوكَ الغيْثِ عند اتصاليهِ
بأسفلٍ مِنْ أعلَى سَدَى غيرِ ملحم

(١) الأصل : حجاج .

(٢) السجنجل : المرأة .

(٣) غير مؤتل : غير مقصر .

(٤) العيطل : المرأة الطويلة أو الطويلة العنق الحسنة الجسم .

(٥) الأصل : لغير .

(٦) كذا ولها وجه ، ولعلها « بَدْرًا » .

(٧) السفح : يشير إلى لون السحاب .

سُلوُكُ كَذُوبِ الدَّرِّ تُعْنَى بِفْتَلِهَا الرِّيحُ
ولكن فَتَلُهَا غَيْرُ مُبْرَمٍ

وقال عبد الرحمن بن المنذر في الطل :
أَلَسْتَ تَرَى حُسْنَ الزَّمَانِ وَمَا يُبْدِي
وَحُسْنَ انْتِشَارِ الطَّلِّ فِي وَرَقِ الوَرْدِ
كَأَنَّ حَبَابَ المَاءِ فِي جَنَابَاتِهِ
تَنَاطَرُ دَمْعٍ جَالٍ فِي صَفْحَةِ الخِدِّ

وقال يوسف بن هارون^(١) :

نورٌ وَغَيْثٌ مُسْبَلٌ وَقَهْوَةٌ تُسَلْسَلُ
فَالغَيْثُ^(٢) مِنْ سَحَابِهِ طَلٌّ ضَعِيفٌ يَنْزَلُ
كَأَنَّهُ بُرَادَةٌ مِنْ فِضَّةٍ تُغْرِبِلُ

وقال أيضاً في سحابة :

وَمُشْتَمَّةٌ لِلأَرْضِ حَتَّى كَأَنَّهَا
تَقْصُ مَحْوِلاً فِي البِطَاحِ^(٣) المَوَاحِلِ^(٤)
فَجَنَّتْ كَمَا جَنَّ الظَّلَامُ وَأَفْرَغَتْ
عَلَيْنَا كإِفْرَاقِ الدَّلَاءِ الحَوَافِلِ^(٥)
أَطَلَّتْ غَدِيرًا فِي الهَوَاءِ كَأَنَّهُ
هُوَ البَحْرُ يَجْرِي بِالسِّفِينِ الحَوَامِلِ

(١) الأبيات في النفع ٥ : ٢١٤ .

(٢) النفع : والأفق .

(٣) الأصل : النفاح .

(٤) المشتمة : التي تشم الأرض أي دانية تكاد تلامسها ؛ تقص : تتبع الأثر .

(٥) الحوافل : الممتلئة .

فلو أنها صَبَّتْ جميعاً لَغَرَّقَتْ
ولكنما^(١) أرواحها كالمناخل

كأن غديرَ الماءِ بين حبابه
وبين شخصٍ قُمنَ مثلَ الأنامل
مساميرٌ درٌّ تعتلي برؤوسها مراراً ، وطوراً تعتلي بالأسافل

وقال المهند :

وساريةٍ طوعَ إعصارها محملةٍ ثقلَ أوقارها
مخايلها^(٢) بالحيا جمَّةُ فإصهارها مثلُ إضمارها
طوتَ صِفَّةً^(٣) الأرض أحشاؤها كطيِّ الجفونِ لأبصارها
نأى غيمُها ودنا غيْثها دُنُوَ الشُّموسِ بأنوارها

وقال ابن هذيل :

وَحَنَانِيَّةٌ فِي الْجَوِّ كِدْرَاءٌ أَقْبَلَتْ
تَبَسُّمٌ عَنِ وَمَضٍ مِنَ الْبَرْقِ خَاطِفِ
تَزْفُ بِهَا رِيحُ الصُّبَا ، غَيْرَ أَنَّهَا
تَهَادِي تَهَادِي الْخَوْدِ بَيْنَ الْوَصَائِفِ

وقال محمد بن مطرف بن شخيص :

فَكَأَنَّ السَّحَابَ فِي الْأَفْقِ رَكْبٌ زَمَّ أَحْدَاجَهُ وَصَفَّ قِطَارَهُ^(٤)
يُذَكِّرُ الْغَيْثُ وَالرَّعْوْدُ حَجِيحاً عَجَّ أَصْوَاتُهُ وَبَثَّ جِمَارَهُ^(٥)

(١) الأصل : ولكنها .

(٢) الأصل : محايلها .

(٣) الأصل : صعة .

(٤) الاحداج جمع حدج وهو الجمل عليه هودج ، والقطار : قافلة الابل .

(٥) الأصل : ولث خماره .

وقال يوسف بن هارون :

وجارية جَرِيَّ السفين تسوقها الرياح ولكن في الهواء غديرها
رأيت بأحشاء البحور سفينها وتلك سفين في حشاها بحورها
وقال أيضاً^(١) :

وسارية كالليل لكن نجومها
على إثر ما يطلعن فيها غوائر
فلما استدارت في الهواء كأنها
عُقابٌ ، متى ما يخفق البرق ، كاسر
وَسَمَّتْ^(٢) دوانيها الرُّبى بأنوفها
كما شم أكفال العذارى^(٣) الضفائر
هوت مثلما تهوي العقاب كأنها
تخاف فوات المحل فهي تبادر
كأن انتشار القطر فيه ضوابط
تُدارُ على الغُدرانِ منه دوائر^(٤)

وقال أحمد بن فرج :

يا غيمٌ أكبرُ حاجتي
رَشْفٌ صداه فطالما
سَقِي الحمى إن كنت تُسَعِفُ
رَوَى الصُّدى فيه الترشُّفُ

(١) في المرقص والمطرب : ١٤ منها البيت الرابع والثالث والخامس ؛ وانظر مسالك الأبصار ١١ :
- ١٧٦ والدرة المضيئة ٦ : ٥٧٥ .

(٢) المرقص : تشم .

(٣) المرقص : أذيال العروس .

(٤) المرقص : انتشار القطر منها . . . تدور ؛ قال ابن سعيد : اسم البيكار عند أهل الأندلس
« الضابط » .

وَأَخْلَعُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّبِيعِ وَوَشِيهِ ثَوْباً مُصَنَّفٌ
حَتَّى تَرَى أَنْهَاءَهُ^(١) وَكَأَنَّهَا أَعْشَارُ مُصْحَفٍ
وَتَخَالُ مُرْفَضُ السُّنْدِيِّ فِي رَوْضِهِ شَكْلاً وَأَحْرُفٌ
الإنهاء : جميع نهبي ويقال نهبي - بالكسر -

(١) في الأصل : « ازهاره » ، وهو لا يوافق شرحه بعد الآيات للفظه « الإنهاء » .

٣- من كتاب (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ

فصل

« الفرق بين الاستعارة^(١) والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التي تقع العناية بها أن نبين حال الاستعارة مع التمثيل أهي هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين أم حداها غير حده ، إلا أنها تتضمنه وتتصل به ، فيجب أن نفرّد جملة من القول في حالها مع التمثيل .

قد مضى في الاستعارة أن حداها أن يكون للفظ اللغوي أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجيء في معنى التمثيل الذي تقدم^(٢) من أن الأصل في كونه مثلاً وتمثيلاً هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور ، والذي لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر ؛ لأنك^(٣) قد تجد الألفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة .

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيده حكماً زائداً على

(١) الاستعارة التي يعينها هي الاستعارة المفردة إذ من رأيه أن الاستعارة التمثيلية التي أثبتها القوم من فروع التمثيل .

(٢) أي في قوله إن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو أولى الخ . .

(٣) علة لقوله لا يجيء .

المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها في كل شيء يقال فيه إنه تمثيل ومثل . والقول فيها أنها دلالة على حكم ثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوي وإجراؤه على ما لم يوضع له . ثم إن هذا النقل يكون في الغالب^(١) من أجل شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه .

وبيان ذلك ما مضى من أنك تقول رأيت أسداً - تريد رجلاً شبيهاً به في الشجاعة ، وظيفية - تريد امرأة شبيهة بالظبية فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها ، أو كالعلة والسبب في فعلها . فإن قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه والتشبيه يكون ولا استعارة ؟ وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيد كالأسد . فالجواب أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة . فقولي « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وأن شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها . وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هي الاختصار والإيجاز على الحقيقة وإن حقيقتها وحقيقتها واحدة ، ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة ما دعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

(١) بناء على ما تقدم له من تقسيم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة .

وإذ قد تقرر هذه الجملة فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجري مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلاً وضرب مثل وإذا كان الشبه عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلاً لكذا كقولنا ضرب النور مثلاً للقرآن ، والحياة مثلاً للعلم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله في اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان آخر لأجل الأغراض التي ذكرنا من التشبيه والمبالغة والاختصار . والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد إلى تقرير الشبه بين الشئيين من الوجه الذي مضى . ثم إن وقع في أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجمليتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شيء لم يعتمد من جهة المثل الذي هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح^(١) لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد ؛ وهذا الخبر كالشمس في الشهرة ، وله رأي كالسيف في المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعاني وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً ، فإذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه في أكثر الأحوال التي تنقل فيها محتملاً متكفئاً^(٢) بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذي من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام

(١) يعني به ما قابل الاستعارة لا ما عناه فيما سبق من جعله مقابلاً للتمثيل .

(٢) المتكفيء في الأصل المتمايل إلى الأمام كما تتكفأ السفينة في جريها ويراد به هنا الصالح للأمرين على السواء .

لأن تريد به أنك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد أنك رأيت شجاعاً باسلاً شديد الجرأة وإنما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال^(١) وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وإن كان فعلاً أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال في بعض الأحوال، وذلك إذا أسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلاً في تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما نحو أن تقول : أنار لي منير ، فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » و« منير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يُعنى بالشيء بعض الأجسام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشيء نوعاً من العلم والرأي وما أشبه ذلك من المعاني التي لا يصح وجود النور فيها حقيقة وإنما توصف به على سبيل التشبيه . وفي الفعل والصفة شيء آخر وهو أنك كأنك تدعي معنى اللفظ المستعار^(٢) له . فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجيء فتضيفه إليه كما تضاف المعاني التي يشتق منها الفعل والصفة إلى الفاعل والموصوف^(٣) فتقول : نور هذه الحجة جلا بصري وشرح صدري ، كما تقول : نور الشمس . والمثل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام فلا هو يقتضي تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعى معناه للشيء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذ قد ثبت هذا الأصل فاعلم أن ههنا أصلاً آخر بينى عليه وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل^(٤) وكان التشبيه يقتضي شيئين مشبهاً ومشبهاً به وكذلك التمثيل لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلي - فإن

(١) المناسب أو بدل الواو ليكون إشارة إلى القرينتين الحالية والمقالية

(٢) الصواب للمستعار له إلا إذا قيل إنه متعلق بتدعي والضمير يعود إلى الشيء من أسند إليه الفعل وأجريت عليه الصفة .

(٣) أي الحقيقيين .

(٤) الأظهر أو بدليل ما بعده .

الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحة وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلاً شجاعاً ووردت بحراً زاخراً تريد رجلاً كثيراً الجود فائض الكف ، وأبدت نوراً تريد علماً ، وما شاكل ذلك . فالاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى . وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كي تقوي أمر المشابهة وتشده ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً بحرف الجر أو مضافاً إليه ، فالفاعل كقولك : بدا لي أسد ، وانبرى لي ليث ، وبدا نور ، وظهرت شمس ساطعة ، وفاض لي بالمواهب بحر ، وكقوله^(١) :

وفي الجيرة الغادين من بطن وَجْرَة^(٢) غزال كحيل المقلتين ربيب
والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً . والمجرور نحو قولك لا
عار إن فر من أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله^(٣) :

يابن الكواكب من أئمة هاشم والرجح الأحساب والأحلام
وإذا تجاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً وكان مبتدأ واسم
المشبه به واقعاً في موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو على هذا الحد .
وهل يستحق الاسم في هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة
وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالى .

(١) نسبه في الأمالي نقلاً عن الرياشي لأعرابي وقيل إنه للأحوص الأنصاري من شعراء العصر
الأموي ويعده :

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تنأين عنه غريب
(٢) وجرة موضع بين مكة والبصرة .

(٣) هو أبو تمام من قصيدة يهنيء بها الوائق ويعزيه في أبيه المعتصم ومطلعها :
ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام

وإذ قد عرفت^(١) هذه الجملة فينبغي أن تعلم أنه ليس كل شيء يجيء مشبهاً به بكاف أو بإضافة « مثل » إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك . أبديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً نافذاً . وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشئيين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دليل عليه وفي العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت فكل شيء كان من الضرب الأول الذي ذكرت أنك تكثفي فيه بإطلاق الاسم ، داخلاً عليه حرف التشبيه نحو قولهم : هو كالأسد ، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة وجدت في دليل الحال وفي العرف ما يبين غرضك ، إذ يعلم إذا قلت رأيت أسداً - وأنت تريد الممدوح - أنك قصدت وصفه بالشجاعة ، وإذا قلت طلعت شمس - وأنت تريد امرأة - علم بأنك^(٢) تريد وصفها بالحسن وإن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان^(٣) من الضرب الثاني لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه :

= يا تربة المعصوم تريك مودع ماء الحياة وقاتل الإعدام
وقبله :

الله أي حياة انبعثت لنا يوم الخميس وبعد أي حمام
أودي بخير إمام اضطربت له شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

(١) هذا تقييد لما فهم مما سبق من أن الاستعارة من شأنها أن تسقط المشبه إلى آخر إذ يفهم منه التعميم وأن كل تشبيه يمكن تحويله إلى استعارة .

(٢) المناسب أنك بحذف الباء إلا إذا ضمن معنى تعلق كقول الحماسي :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

(٣) اسم كان يعود إلى الشيء ومن الضرب الثاني خبرها وجملة الخ لا سبيل . . . جملة حالية من الضمير المستكن في الخبر أو سقطت كلمة (الذي) من الجملة .

فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لا تدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ، ينبيء عن الشبه فلو حاولت في قوله « فإنك كالليل الذي هو مدركي » أن تعامل الليل معاملة الأسد في قولك : رأيت أسداً - أعني أن تسقط ذكر الممدوح من البين - لم تجد له مذهباً في الكلام ولا صادفت طريقة توصلك إليه ، لأنك لا تخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول : إن فررت أظلني الليل . وهذا محال لأنه ليس في الليل دليل على النكتة التي قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعده في الهرب ، وصار إلى أقصى الأرض ، لسعة ملكه وطول يده ، وأن له في جميع الآفاق عاملاً وصاحب حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية ما يتأتى في ذلك أنه يريد إن هرب عنه أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل في ظلمة الليل ، وهذا شيء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدي به التشبيه الذي قصد في البيت ولم أرد أنه لا تمكن استعارته على معنى ما ولا يصلح في غرض من الأغراض ؛ وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدي إلى تعسف إذ لو قلت : إن فررت منك وجدت ليلاً يدركني وإن ظننت أن المتأى واسع والمهرب بعيد - قلت ما لا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجز بأن تجعل الممدوح ليلاً هكذا .

فأما قولهم إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح في أن يجري اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا :

* بعثت معي قطعاً من الليل مظلماً *

يعني زنجياً قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله ، هذا -

ويمثله كلما^(١) وجدت ما إن رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد^(٢) فيه هذا القدر من التمثل والتكلف أيضاً ، وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة » قل الآن من أي جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأي ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول رأيت إبلاً مائة لا تجد فيها راحلة ، في معنى رأيت أناساً والإبل المائة التي لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت رأيت أسداً ، على معنى رجلاً كالأسد وأطلقت^(٣) عليه الأسد على معنى الذي هو الأسد^(٤) ؟ وكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة »^(٥) ؟ لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة في شيء منه فتقول رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركاً للكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكنني أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره .

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والافتصار على المشبه به . وبقي أن يتعرف الحكم في الحالة الأخيرة^(٦)

(١) الصواب أن نفصل (ما) من كل وتكون كل فاعل يماثل وما نكرة موصوفة وظرف وجدت الأولى محذوف تقديره فيه وما الثانية مفعول وجدت وهي نكرة موصوفة بجملي الشرط والجواب ويصح أن تكون ما الثانية فاعل يماثل وتكون وكلما وجدت اعتراضية وبعد فهي عبارة ركيكة .

(٢) الصواب وجدت بدليل ما بعده من قوله ملغزاً وقوله تاركاً كلام الناس .

(٣) الصواب وأطلقت .

(٤) الصواب كالأسد .

(٥) الخامة الغضة الرطبة من النبات ولفظ الحديث مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا ونحوه قول الطرمح :

إنما نحن مثل خماسة زرع فمتسى بأن يأت محتصده

(٦) وهي الحال التي يكون الطرفان فيها موجودين في الكلام على جهة التشبيه البليغ .

وهي التي يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو: زيد أسد ووجدته أسداً ، هل تساوق^(١) صريح التشبيه حتى يجوز في كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثاني وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر؟ والقول^(٢) في ذلك أن التشبيه إذا كان صريحاً بالكاف و«مثل» كان الأعراف الأشهر في المشبه به أن يكون معرفة كقولك: هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئاً يرتضى، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث، إلا أن يخصص بصفة نحو كبحر زاخر، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذي يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين - التعريف والتنكير - فيه حسناً جميلاً -. تقول زيد الأسد والشمس والبحر، وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

وإذ قد عرفت^(٣) هذا فارجع إلى نحو:

* فإنك كالليل الذي هو مدركي *

واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول: فإنك الليل الذي هو مدركي . أو أنت الليل الذي هو مدركي . وتقول في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع» المؤمن الخامة من الزرع . وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «الناس كإبل مائة» الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد (واسئل القرية) تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلاً .

(١) تساوقت الغنم تراحمت في السير .

(٢) يؤخذ من هذا أنهما يتساوقان تعريفاً ولا يتساوقان تنكيراً .

(٣) فيه بيان الفرق بين التشبيه الذي لا تأول فيه وما فيه التأول من جهة المعنى عند تحويلهما إلى تشبيه بليغ وبعبارة أخرى إن المشبه إذا كان مفرداً ساغ تحويله إلى تشبيه بليغ وإلا لا يمكن كما في التمثيل المركب .

والنكتة في الفرق^(١) بين هذا الضرب الذي لا بد للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذي هو نحو زيد كالأسد، أنك إذا حذف الكاف هناك فقلت: زيد الأسد فالقصد أن تبالغ في التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذف ذكر المشبه أصلاً فقلت: رأيت أسداً أو الأسد فأما في نحو « فإنك كالليل الذي هو مدركي » فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوي أنك أردت أن تقول: فإنك مثل الليل ثم حذف المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف. وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة. ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف في الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذي له من تعميمه الأفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه.

وإن أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك أعني أن ههنا ما يصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثاني فاعمد إلى^(٢) ما تجد الاسم الذي افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾ الآية لو قلت: إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الأرض، لم يكن للكلام وجه، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت وكيت، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده وقد أفرد كما قد يتخيل في البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل في السخط. وهذا موضع في الجملة

(١) وهذا ما فهم من قوله ويكون تقديره الخ . . .

(٢) أي إلى تركيب .

مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لا سبيل إلى جحد أنك تجد الاسم في الكثير وقد يوضع موضعاً في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه في ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة^(١) والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التي هي « ماء » في الآية وفي الآي 'الأخر نحو قوله تعالى: ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ ولو قلت : هم صيب ولا تضمير مثلاً البتة على حد « هو أسد » لم يجوز لأنه لا معنى لجعلهم صيباً في هذا الموضع ، وإن كان لا يتمتع أن يقع صيب في موضع آخر ليس من هذا الغرض في شيء استعارة^(٢) ومبالغة كقولك ، فاض صيب منه تريد جوده ، وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق في الجود - فلسنا نقول إن هاهنا اسم جنس واسماً صفة لا يصلح للاستعارة في حال من الأحوال .

وهذا شعب من القول^(٣) يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فإن قلت فلا بد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة^(٤) . والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن ههنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهي أن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعرف كونه أصلاً فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس أو الاشتهار^(٥) بظهور وأنها لا تخفي فيها^(٥) أيضاً وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة في السيف والنفاذ

(١) الصواب أو المبالغة بدليل ما بعده .

(٢) الصواب أو مبالغة .

(٣) أي قبيلة وطائفة .

(٤) الصواب أو المبالغة .

(٥) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور .

في السنان وسرعة المرور في السهم وسرعة الحركة في شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه - فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعرف^(١) كونها أصولاً فيها وأنها أخص ما توجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات^(٢) بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة ، ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعني أنك إذا قلت : « يا بن الكواكب من أئمة هاشم » و« يا بن الليوث الغر » فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذي وضع له . وادعيته له كان قولك : هم الكواكب وهم الليوث ، أو هم كواكب وليوث ، أخرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع في وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى في المبالغة - وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة - أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذي يجمع بين الشئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ما عداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظاً ظاهراً في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد ، تناهى في الدعوى إما قريباً من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجاوزاً^(٣) في القول فجعله بحيث لا تنقص

(١) أي تعرف كون الأسماء أصولاً في هذه الأوصاف .

(٢) المناسب النيرات أي الكواكب .

(٣) متوسعاً فيه .

شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد في حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضح على ذلك السبع إلا للشجاعة التي فيه ، وأن ما عداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها في استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذي يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت فقد^(١) جعل الأسد له لا محالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين :

(أحدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبدالله ، عرفت أن هذا الذي تذكر الآن هو الذي عرفه بأبي عبد الله .

(والثاني) أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لهما ، ونفي الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أي لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختلفت أحدهما بصفة لا تكون في الآخر . وهذا المعنى الثاني فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائي لهما في حالين أنه رأى شيئاً واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو » ، والمشبه إذا وقف وهمه^(٢) كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقاً فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقرر هذه الجملة فقولنا ، فإنك كالليل الذي هو مدركي ، إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذي هو مدركي - لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التي من أجلها جعلت الرجل الأسد . فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه

(١) جواب قوله وإذا كان بحكم التشبيه الخ . . .

(٢) الصواب همه .

وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه حسب^(١) الحال في المستوحش الشديد الوحشة كما قال^(٢):

* أعيّدوا صباحي فهو عند الكواعب *

قيل لك هذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فإننا نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجيء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت ممدوح : أنت الصاب ، وتسكت ، وحتى إن الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال في دفع ما يغشى النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التي ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح كقول المتنبي^(٣).

حسن في وجوه^(٤) أعدائه أقسبح من ضيفه رأته السوام

بدأ فجعله حسناً على الإطلاق ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيد^(٥)

(١) الذي في القاموس استعماله مجروراً بالباء وهو بفتح السين وسكونها ومعناه العدد والقدر .

(٢) هو أبو الطيب يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي بمصر وهو مطلع القصيدة :

أعيّدوا صباحي فهو عند الكواعب	وردوا رقادي فهو لحظ الجبائب
فإن نهاري ليلة مدلهمة	علي مقلّة من فقدكم في غياهب
بعيدة ما بين الجفون كأنما	عقدتم أعالي كل جفن بحاجب

(٣) يمدح علي بن أحمد المزني الخراساني وقد تقدم والسوام والسائمة الإبل الراعية وجمع السائم والسائمة سوام .

(٤) رواية الديوان في عيون أعدائه .

(٥) بقوله حسن على الإطلاق .

وتقدم من احترازه في تلافى ما يجنيه إطلاق صفة القبح حتى وصل به هذه الزيادة من المدح وهي كراهة سوامه لرؤية أضيفه وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطاً بين سعدين فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه كقوله^(١) :

فإذا ما أردت كنت رشاء وإذا ما أردت كنت قليلاً^(٢)

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال^(٣) :

(١) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ومطلعها :

من سجايا الطلول ألا تجيبا فصواب من مقلتي أن تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلاً ومجيبا
إلى أن قال :

لو رأى الله أن في الشيب خيراً جاورته الأبرار في الخلد شيبا
كل يوم تبدي صروف الليالي خلقاً من أبي سعيد غريباً
ثم قال :

أنضرت أيكتي عطاياك حتى صار ساقا عودي وكان قضيماً
مطرأ إلى بالجاه والمال ما ألد قك إلا مستوهباً أو وهوبا
(٢) الرشاء جبل الدلو ، والقليب البئر .

(٣) يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شباة من القواد ومطلعها :

أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم
وقبله :

لمحمد بن الهيثم بن شباة مجد إلى جنب السماء مقيم
لله كف محمد وولادها بالبذل إذ بعض الأكف عقيم
غيث حوى كرم الطبايع دهره والغيث يكرم مرة ويلوم

ما زال يهذي بالمكّارم والعلي حتى ظننا أنه محموم
 فجعله يهذي وجعل عليه الحمى ه وظن أنه إذا حصل له المبالغة في
 إثبات المكّارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ،
 فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، فكذلك
 أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، في اقتراحك علينا أن نسلك بالليل في
 البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فإن قلت) افترى أن تأبى هذا التقدير^(١) في البيت أيضاً حتى يقصر
 التشبيه على ما تفيده الجملة الجارية في صلة الذي ؟ (قلت) فإن ذلك الوجه
 فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « ليدخلن هذا
 الدين ما دخل عليه الليل » فكما تجرد المعنى للحكم الذي هو الليل من
 الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه
 كذلك يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل
 إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده .
 وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل في
 وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه^(٢) كل واحد منهما
 فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل كذلك
 الكائن في الليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل
 على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط
 رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزداد في نصرته بقوله^(٣) :

(١) وهو معنى السخط مصموماً إلى معنى الإدراك .

(٢) لا يجوز التحويين هذا إذ الجملة في مثل هذه الحال يجب فيها حذف الواو .

(٣) هو العباس بن الأحنف بن الأسود ينتهي نسبه إلى بني حنيفة من بكر من وائل وهو من أحدق
 الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ولزم فناً واحداً فأحسن فيه وما هجا ولا مدح ولا
 تكسب بشعره

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة في تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصي البلاد ؛ وانتشارها في العباد ؛ بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ فاحشاً إلا أن هذا وإن كان يجيء مستوياً في الموازنة ففرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ما ليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها جانباً .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وإن كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، وإذا كان يكلمه وهو في النهار بُعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذي إقباله منتظر ، وطريانه^(١) على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو في صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقيني الطلب منك ، ولكان إدراكك وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل في عقب نهاري هذا إياي ، ووصوله إلى أي موضع بلغت من الأرض .

وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة في البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلاً على سبيل العرض ويضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذي هو الآن تابع وجعله أصلاً ومقصوداً على الأفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة ، وليس كذلك الحكم في الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح

(١) مصدر طرأ : الطرو ، ولا يوجد في القاموس هذا المصدر .

بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت في حال السخط ليل وفي الرضى نهار
فطفقت هكذا تجعله ليلاً بسخطه ، لم يحسن ، وإنما الواجب أن يقول :
النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضى عنه ، وزمان عدوك
ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال^(١) :

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالي كلها أسحار
وقد يقول الرجل لمحبوه : أنت ليلي ونهاري . أي بك تضيء الدنيا
وتظلم ، فإذا رضيت فدهري نهار ، وإذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت
دائي ودوائي وبرئي وسقامي ولا تكاد تجد أحداً يقول « أنت ليل » على معنى
أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد
الجلد وتجهم الوجه أخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها إلى
القلب أسبق ، فاعرفه .

(١) هو أبو تمام يمدح أبا سعيد التعري ومطلعها :

لا أنت أنت ولا الديار ديار . حف الهوى وتولت الأوطار
وقله :

وأرى الرياص حواملاً ومطافلاً مذ كنت فينا والسحاب عشار

٤ - من كتاب (البديع في نقد الشعر) لأسامة بن منقذ الكناني المتوفي

سنة ٥٨٤ هـ

باب الاستعارة

أعلم أن الاستعارة هو أن يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول ،
كما قال الله عز وجل : ﴿ لا تُظلمون فتيلاً ﴾ و ﴿ ولا تظلمون نقيراً ﴾ و
﴿ وما يملكون من قطمير ﴾ .

والاستعارة أوكَّد في النفس من الحقيقة ، وتفعلُ في النفوس مالا تفعله
الحقيقة ، وقوله : فتيلاً ، أنفى للكثير والقليل من قوله : شيئاً . وقوله تعالى :
﴿ واخفض لهما جناحِ الدُّلِّ من الرحمة ﴾ ، و ﴿ إنَّه في أمِّ الكتاب ﴾
﴿ واشتعل الرأسُ شيئاً ﴾ ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ ، ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ .

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (ضُمَّوا ماشيتكم حتى تذهبَ فحمةُ
العشاء) وقال عليه الصلاة والسلام لبعض عماله : (أرغب راغبهم ، واحلل
عقدة الخوف) وقال عليه الصلاة والسلام : (اتسع نطاق الإسلام ، فلا حاجة
إلى الكحل والخضاب) . كتب عليُّ عليه السلام^(١) إلى الخوارج : (الحمد
لله الذي فض حزمتكم ، وفرَّق كلمتكم) وقال عبدالله بن وهب^(٢) الخارجي

(١) في الصناعتين : كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه . انظر الصناعتين ٢١٣ .

(٢) من الأزدي ، كان ذا علم ورأى وشجاعة وفصاحة ، أحد أئمة الخوارج ، أمروه عليهم وقتلوا
علياً ، وقتل عبد الله سنة ٣٨ هـ .

في كلامه : لا خيرَ في الرأيِ الفطير^(١) ، والكلامِ القَضيْب^(٢) ، إنَّ غُبوبِ
الرأيِ يكشفُ عن محضه ، والفكرةُ مخُ العملِ . فأبدع عليه السلام في هذه
الكلمات الأربع ، ولو قال : لبَّ العملِ ، لم يكن بديعاً .

وأحسن الاستعارات قولُ ذي الرمة :

أوردته وصدورُ الليلِ مُسِنَّفَةً^(٣) والليلُ بالكوكبِ الدُّرِّيِّ منحورٌ^(٤)

وقول ذي الرمة أيضاً :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى ولفَّ الثريَّا في مُلاءته الفَجْرُ

وقال أبو تمام^(٥) :

لا تَسقني ماء الملام ؛ فإنني صبَّ قد استعذبتُ ماءً بُكائي

وقال أيضاً فيها :

فسقاهُ مسكُ الطلِّ كافورَ الندى وانحلَّ فيه خيطُ كلِّ سماءِ

ومنه :

فقلت لها : يا أمَّ بيضاء ، إنَّه أريق شَبابي واستشَنَّ^(٦) أديمه^(٧)

إذا ما هبَّطنَ المحلَّ قد مات عودُه بكين به حتى يعيش هَشيمُه

(١) الفطير . كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير . يقال . (إياك والرأي المطير)

(٢) اقتصاب الكلام . ارتحاله . وبعده كما في الصاعتين . « فلما بايعوه قال . دعوا الرأي يغب ،

وإن غوبه يكشف لكم عن محضه » الصناعتين ٢١٤

(٣) أسفت الناقة : تقدمت الإبل .

(٤) حره . وضع على حره .

(٥) البيت من قصيدة له بديوانه (٣١٥) مطلعها .

قدك ، أتئب ، أريبت في الهواء كم تعدلون ، وأتم سحراتي

(٦) استس . هزل

(٧) الأديم . الحلد

ومنه :

نُطَارِدُهُمْ فَنُودِعُ^(١) الْبَيْضَ هَامِهِمْ ويستودعون السّمهريّ^(٢) المقومًا

ومنه :

تحبي الروامس^(٣) ربّعها فتجدهُ بعد البلى ، وتُميتُه الأمطارُ
هذا بيتٌ قد جُمع فيه الاستعارةُ والمطابقةُ ، لأن فيه البلى والجدّة ،
والإماتةَ والحياةَ . ومن المعلقات لطرفة^(٤) :

ووجهٍ كأنَّ الشمسَ حلّت رداءها عليه نقيّ اللّونِ لم يتخذدِ
امرؤ القيس^(٥) :

وقد أعتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكل^(٦)
وتقول العرب : صاحَ الشحم إذا طال . وشجرٌ واعدٌ إذا اخضرَّ ، كأنّه
يعدُّ بالثمر .

وقال العجاج^(٧) : كالكرمٍ إذ نادى من الكافور^(٨) .
وأنشدوا :

(١) البّيض : السيوف .

(٢) السّمهري : الرمح الصلب .

(٣) الروامس : الرياح .

(٤) هو طرفة بن العبد المعروف بالمتلبس ، شاعر جاهلي له معلقة ، توفي سنة ٥٥٠ م .

« وجه كأن الشمس » من قصيدته : « لخولة أطلال » ، والرواية في الديوان : « ألت رداءها ،

ووجه : مبتدأ حذف خبره : أي لها وجه . والتخذد : التشنج والتغضن واسترخاء اللحم .

(٥) انظر البيت ٤٩ من القصيدة الأولى ص ٣٠ من ديوانه .

(٦) الوكنات : جمع وكنة : الموضع الذي يأوي إليه الطائر . المنجرد : الفرس القصير

الشعر . الأوابد : واحدة أبدة : الوحش ، قيل لها ذلك لأنها تعمر على الأبد ، الهيكل :

الفرس الضخم .

(٧) راجز مجيد من الشعراء ، ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها وعاش إلى أيام الوليد بن عبد

الملك .

(٨) الكافور : نبت طيب نوره كتور الأبقوان .

إِنْ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِسَلْمَى لَزَمَانُ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ
وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لبعض الخوارج : لَمَّا فُغِرَ (١) فَمُ
الباطل ، نجمت نجوم الحق .

وقال يصف الدنيا : لَمْ يُمَسِّ أَحَدٌ مِنْهَا عَلَى جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا
على قوادم (٢) خَوْفٍ .

ومن بديع الاستعارة في المثنوي قولُ بعض العرب : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ
حَنْدَسٍ (٣) قَدْ أَلَقْتُ عَلَى الْأَرْضِ أَكَارِعَهَا (٤) فَجَمَعْتُ صُورَةَ الْأَبْدَانِ ، فَمَا
كَدْنَا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِالْأَذَانِ .

وقال بعض العرب : جَعَلْنَا أَرَشِيَّةَ (٥) الْمَوْتِ سَيُوفَنَا فَاسْتَقَيْنَا ، بِهَا
أرواحهم .

ومدح أعرابي قوماً فقال : أَوْلَيْكَ غُرْرٌ تُضِيءُ فِي الْمَشْكَلَاتِ ، وَتُضْغِي
إليهم أذان المجد ، يصومون عن الفحشاء ، ويُفطرون على المعروف .

ووصف آخر روضةً فقال : جَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا ، وَحَطَّتْ بِهَا
السَّحَابُ أَنْقَالَهَا .

ووصف أعرابي قومه فقال : إِذَا اصْطَفُّوا تَحْتَ الْقِتَامِ (٦) ، سَفَرَتْ بَيْنَهُمْ
السَّهَامُ ، وَإِذَا تَصَافَحُوا بِالسِّيُوفِ ، فُغِرَتْ أَفْوَاهُ الْحَتُوفِ .

وقال آخر :

(١) فغراه : فتحه .

(٢) القوادم أربع أو عشر ريشات في مقدم الحناح

(٣) الحندس : الليل المظلم .

(٤) أكارعها . أطرافها القاصية . وقيل الكراع : ركن من الجبل يعرض في الطريق

(٥) انظر الصناعتين ٢١٤ والأرشيّة : جمع رشاء ، وهو الجبل .

(٦) القتام : الغبار .

سأبكيك للدينا وللدنين؛ إنني
وقال آخر:-
وجيشٍ تفضلُ البلقُ^(١) في حَجْرَاتِهِ^(٢)
وقال أبو تمام^(٤):
لياليَ نحنُ في غَفَلاتِ عيشِ
العباس بن الأحنف^(٦):
قد سحب الناسُ أذيالَ الظنون بنا
فكاذِبٌ قد رمى بالظنِّ غيرَكُمُ
آخر^(٧) :
بكفَّ أبي أيوب يُستمطر الغني
تساقطُ يُمناه الندى وشِماله الرُّ
ومنه :
سلامة بنُ نجاحٍ يُجيد حثَّ الرِّاحِ

- (١) البلق : خيل ذات سواد وبياض .
(٢) حجراته : نواحيه . والأكم : جمع أكمة .
(٣) في الصناعتين ٢٢١ : « فيه » .
(٤) البيت من قصيدة بديوانه (٢١٤) مطلعها :
ذريني منك سافحة المآقي
والرواية فيه :
سنبكي بعده غفلات عيشِ
(٥) الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به .
(٦) شاعر لم يتكسب بالشعر ، وأكثر شعره في الغزل ، توفي سنة ١٩٢ ، وترجمته في ابن خلكان
ج ١ ص ٢٤٥ ، والشعر والشعراء ص ٥٢٥ .
(٧) ينسب لمسلم . (الصناعتين) .

إذا تغننى زمرنا عليه بالأقداح
ومنه :

تشدو، فزمر بالكثو س لها ، ورقص بالرؤس
ومنه :

قيل : ما أعددت للبر د فَقَدْ جاء بشدة
قلت: دُرَاعَةٌ عُرِيٌّ تحتها جُبَّةٌ رِعْدَةٌ
ومنه :

يا من بدائع حسن صورته تشنى إليه أعنة الحديق
لي منك ما للناس كلهم: نظروا وتسليم على الطرق
لكنهم سعدوا بأمنهم ومئيت حين أراك بالفرق^(١)
ومنه :

غفلات كن حُلماً فانقضى وشباب كان ظلاً فانقل
لو أراني الدهر ما أحر لي لتعلق بأيامي الأول
ليت شعري عني اعتاض بمن هل لكف فارقت زناداً بدل
إن جيداً اسقطت من عقده دُرَّةٌ مثلي حقيق بالعطل
ابن المعتز^(٢) :

وإبلائي من محضري ومغيبٍ وحيبٍ مني بعيدٍ قريب
لم ترد ماء وجهه العين حتى شرفت قبل ريبها برقيب

(١) الفرق : الفرع .

(٢) سبقت ترجمته ، راجع ديوانه ص ٦٥ .

٥ - من كتاب (حسن التوسل في صناعة التوسل) لشهاب الدين محمود
الحلي المتوفي سنة ٧٢٥ هـ

الحقيقة والمجاز

فصل : الحقيقة في اللغة فعيلة بمعنى مفعولة من حق الأمر حقه ،
بمعنى أثبتته أو من حققته إذا كنت على يقين والمجاز مفعول من جاز الشيء
يجوزه إذا تعداه فإذا عدل باللفظ عما يوجه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على
أنهم قد جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أو لأنه
ليس بموضع أصلي لهذا اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه ، كالواقف بمكان
غيره ، ثم يتعداه إلى مكانه الأصلي وحدهما في المفرد إن كل كلمة أريد بها
ما وضعت له فهي حقيقة كالأسد للحيوان المفترس واليد للجارحة ونحو
ذلك ، وإن كان أريد بها غيره لمناسبة بينهما ، فهي المجاز كالأسد للشجاع
واليد للنعمة أو القوة ، فإن النعمة تعطي باليد ، والقوة تظهر بكمالها في
اليد ، وحدهما في الجملة : إن كل جملة كان الحكم الذي دلت عليه كما
هو في العقل فهي حقيقة كقولنا : « خلق الله الخلق » وكل جملة أخرجت
الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل بضرب من التأويل فهي مجاز كما إذا
أضيف الفعل إلى شيء يضاهي الفاعل كالمفعول به في قوله تعالى : ﴿ عيشة
راضية ﴾ و ﴿ من ماء دافق ﴾ أو المصدر كقولهم : « شعر شاعر » أو الزمان
كقول النعمان بن بشير لمعاوية :

ألم تبدركم يوم بدرٍ سيوفنا وليلكِ عمّا نابَ قومك نائم
أو المكان كقولك : « طريق سائر » أو المسبب كقولهم : « بنى الأمير
المدينة » ، أو السبب كقوله تعالى : ﴿ وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم
إيماناً ﴾ .

فمجاز المفرد لغوي ويسمى مجازاً في المثبت ، ومجاز الجملة عقلي ،
ويسمى مجازاً في الإثبات وإذا عرفت هذا فنقول المجاز : قد يكون في
الإثبات وحده ، وهو أن تضيف الفعل إلى غير الفاعل الحقيقي كما ذكرنا .

وقد يكون في المثبت وحده كقوله تعالى : ﴿ فأحيينا به الأرض بعد
موتها ﴾ ، جعل خضرة الأرض ونضرتها حياة ، وقد يكون فيهما جميعاً
كقولك : « أحيتني رؤيتك » ، تريد سرتني ، فقد جعلت المسرة حياة ، وهو
مجاز في المثبت واسندتها إلى الرؤية ، وهو مجاز في الإثبات .

والمجاز أعم من الاستعارة والتمثيل والكناية ، فهو جنس لها ، واعلم
أنهم تعرضوا في اعتبار كون اللفظ مجازاً إلى اعتبار شيئين :

الأول : أن يكون منقولاً عن معنى وضع اللفظ بإزائه وبهذا يتميز عن
اللفظ المشترك .

الثاني : أن يكون ذلك النقل لمناسبة بينهما ، فلا توصف الأعلام
المنقولة بأنها مجاز إذ ليس نقلها لتعلق نسبة بين المنقول عنه ومن له العلم
وإذا تحقق الشرطان سمي مجازاً ، وذلك مثل تسمية النعمة والقوة باليد لما
بين اليد وبينهما من التعلق ، وكما قالوا : (رعينا الغيث) يريدون النبت
الذي الغيث سببه وأصابتنا السماء ، يريدون المطر .

والمجاز قد يكون بزيادة كقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ ،
وبنقصان كقوله تعالى : ﴿ وأسأل القرية ﴾ ، وإنما يكون كل منها مجازاً إذا

تغيرت بسببه حكم ، فأما إذا لم يتغير كقولك : « زيد منطلق وعمرو » فيحذف الخبر فلا يكون مجازاً إذا لم يتغير حكم ما بقي من الكلام .

التشبيه

القول في التشبيه وهو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه كالشجاعة في الأسد والنور في الشمس ، وهو ركن من أركان البلاغة ، لإخراجه الخفي إلى الجلي وادئائه البعيد من القريب وهو حكم إضافي لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة وليس الحكم إنه إذا صحت الاستعارة حسن التصريح بالتشبيه ، فإن المشابهة إذا قرنت بين الشيئين بالاستعارة قبح التصريح بالتشبيه فلا تقول كأنك في ظلمة ، إذا أوقعك في شبهة ، ولا فهمت المسألة فكأنه انشرح صدري ، أو كأن نوراً حصل في قلبي لتمكن هذه الأشياء حتى صارت كأنها حقيقة .

ثم التشبيه على أربعة أقسام ، الأول : تشبيه محسوس بمحسوس لا اشتراكهما إما في المحسوسات الأولى وهي مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس « كتشبيه الخد بالورد ، والوجه بالنهار ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار وأطيط الرجل بأصوات الفراريج » والفواكهة الحلوة بالسكر والعسل ، ورائحة بعض الرياحين بالكافور والمسك ، واللين الناعم بالخز ، والخشن بالمشح .

أو في المحسوسات الثانية : وهي الأشكال المستقيمة والمستديرة والمقادير والحركات « كتشبيه المستوي المنتصب بالرمح ، والقدر اللطيف بالغصن ، والشيء المستدير بالكرة والحلقة ، وعظيم الجثة بالجبل ، والذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم . أو في الكيفيات الجسمانية كالصلابة والرخاوة ، وفي الكيفيات النفسانية كالغرائز والأخلاق ، أو في حالة إضافية كقولك : هذه حجة كالشمس والجامع إن كل واحد منهما مزيل للحجاب

وكقولك : أفضاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة ، والجامع سرعة وصوله إلى النفس واهتزازها به ، وربما كان التشبيه بوجه عقلي كقول فاطمة بنت الخرشب الانمارية حيث وصفت بنيتها الكملة : « هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ؟ » فإنه لا يفهم المقصود إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة ، بخلاف ما سبق ومن الفرق الظاهر بينهما إن جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً يجيء فيما تقدم مجيئاً واسعاً كقولهم في النجوم كأنها مصابيح ، وفي المصابيح كأنها نجوم ، وإن حاولت ذلك في الثاني لم يكد ينقاد انقياد الأول .

الثاني : تشبيهه المعقول بالمعقول كتشبيه الوجود العاري عن الفوائد بالعدم ، وتشبيه الفوائد التي تبقى بعد عدم الشيء بالموجود كقول الشاعر :

رَبِّ حَيٍّ كَمِيتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يَرْتَجِي لِنَفْعٍ وَضُرٌّ وَعِظَامٌ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

الثالث : تشبيهه المعقول بالمحسوس كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ .

الرابع : تشبيهه المحسوس بالمعقول وهو غير جائز ، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ، ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علماً فإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يكون جعلاً للفرع أصلاً ، والأصل فرعاً ولذلك حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور ، والمسك بالثناء ، فقال : الشمس كالحجة في الظهور ، والمسك كالثناء في الطيب كان سخفاً من القول .

فأما ما جاء في الأشعار من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدر

المعقول محسوساً ويجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالغة ، فيصح التشبيه حينئذٍ وذلك كما قال الشاعر :

وكان النجوم بين دجاها سننٌ لآخَ بينهنَّ ابتداءً

فإنه لما شاع وصف السنة بالبياضِ والإشراقِ على ما قال - صَلَّى اللهُ عليه وسلم - « أتيتم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » ، واشتهرت البدعة ، وكل ما ليس بحق بالظلمة تخيل الشاعر إن السنن كأنها من الأجناس التي لها إشراق ونور وإن البدع نوع من الأنواع التي بها اختصاص بالسواد والظلمة صار ذلك عنده كتشبيه محسوس بمحسوس فجاز له التشبيه وبالجملة فهذا التشبيه لا يتم إلا بتخييل ما ليس بمتلون متلوناً ثم يتخيله أصلاً فيشبه به ، وهذا هو التأويل في قول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرْتُكَ والفؤادُ كأنهُ يوم النوى وفؤادُ مَنْ لَمْ يعشِقِ

فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد يقال : اسودت الدنيا في عينه ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فعرفه به وشبهه ، ثم عطف عليه فؤاد من لا يعشق نظراً ، لأن الظريف يدعي المساواة على من لم يعشق والقلب القاسي يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلاً في السواد . فقس عليه ، وهكذا الكلام في قول الشاعر :

كأن انتضاء البدرِ من تحت غيمةٍ

نجاةً من البأساء بَعْدَ وقوعِ

وفي قول القاضي التنوخي :

أما ترى البردَ قد وافت عساكره

وعسكر الحر كيف انصاعَ منطلقاً

فانهض بنار إلى فحم كأنهما

في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا

جاءت وقلب الصبّ حين سلا

بردا فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

وكذلك قول الصاحب بن عباد حين أهدى للقاضي أبي الحسن علي بن

عبد العزيز عطرا :

يا أيها القاضي الذي نفسي له في قرب عهد لقاءه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

والمعتاد تشبيه الثناء بالعطر وهو عكس الأمر على جهة المبالغة كما بينا

وذلك قول جحظة :

ورق الجوح حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمان

وقلت في تشبيه حصن :

كأنه وكأن الجو يکنفه وهم تمثله في طيها الفكر

لأنه لما أرتفع في الجو خفي حتى صار كالوهم فيكون تشبيه المحسوس
بما يخيل أنه محسوس ، لاطلاعه في العين أو فرض له الخفاء حتى صار
تشبيه معقول بمعقول ، وقال أبو اسحق الصابي في بعض رسائله :

(وهو في نشوزه عنا ، وطلبنا أياه كالضالة المنشودة ، وما نرجوه من
الظفر به كالظلامه المردودة) . ويقرب من هذا النوع تشبيه الموجود بالمتخيل
الذي لا وجود له في الاعيان كتشبيه الجمر بين الرماد ببحر من المسك موجه
الذهب وذلك إنما يتم إذا فرض المتخيل من أمور كل واحد منهما موجود في
الاعيان فحينئذ يكون التشبيه حسناً لطيفاً كقول الشاعر في النرجس :

كأن عيون النرجس الغض بيننا

مداهن دُر حشوهن عقيق

وكقول الآخر في تشبيه الشقائق :

وَكأنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدُ
أَعْلَامُ ياقوتٍ نُشِرَ نَ على رماحٍ من زبرجدٍ

ويقرب من هذا الجنس قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرقيّ مضاجعي ومسنونة زرقُ كأنيابِ أغوالِ
فإنهم لم يشاهدوا أنياب الأغوال ، بل اعتقدوا أنها في غاية الحدة
فحسن التشبيه وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾
لتناهي رؤوس الشياطين في الكراهة ، ولاعتقادهم في قبح الشيطان وكراهيته
وشره ، يشبهون به الوجه القبيح ، ولاعتقادهم الغاية في خير الملك وأنه لا
شر فيه يشبهون به الصور الحسنة ، قال الله تعالى : ﴿ ما هذا بشرا إن هذا الا
ملك كريم ﴾ .

واعلم أن ما به المشابهة قد يكون مقيداً بالانتساب إلى شيء وذلك أما
إلى المفعول به كقولهم : « أخذ القوس باريها » وإلى ما يجري مجرى
المفعول به وهو الجار والمجرور كقولهم لمن يعمل ما لا يفيد : « كالراقم
على الماء » وأما إلى الحال كقولهم : « كالحادي وليس له بعير » الواو للحال
والجار والمجرور كقولهم ؛

« هو كمن يجمع السيفين في غمد » ، و﴿ كمتبغي الصيد في عريسة
الأسد » ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها
كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ فإن التشبيه لم يحصل من مجرد الحمل بل
لامرين آخرين معه تعديته إلى الأسفار ، واقتران الجهل بما فيه لأن الغرض
توجيه الذم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمن المنافع العظيمة ثم لا
ينتفع به لجهله وكقول لبيد :

وما الناسُ إلا كالديارِ وأهلها بها يومَ حلوها وغدواً بلائعُ

فإنه لم يشبه الناس بالديار وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلول أهل الديار فيها ، ووشك رحيلهم منها . وكلما كانت التقييدات أكثر كان التشبيه أوغل في كونه عقلياً ، كقوله تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ﴾ . فإذا الشبه متزع من مجموع هذه الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، فإنك لو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان أدخل ذلك بالمغزى من التشبيه ثم ما به المشابهة إن كان مركباً فإنه على قسمين :

الأول : ما لا يمكن أفراد أجزاءه بالذكر ، كقول القاضي التنوخي :

كأنما المريخ والمشتري قدامه في شامخ الرفة
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعة

فإنك لو اقتصرت على قوله : « كأنما المريخ منصرف عن دعوة أو كأن المشتري شمعة » لم يحصل ما قصده الشاعر ، فإنه إنما قصد الهيئة التي تلبسها المريخ من كون المشتري أمامه ، ولي في مثل ذلك :

كأن سهيلاً والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها امامها
فإنه لا يمكن افراد أجزاء هذا التشبيه إذ لو قلت كأن سهيلاً امام أو كأن النجوم صفوف صلاة ، ذهب فائدة التشبيه .

الثاني : ما يمكن إفراده بالذكر ويكون إذا أزيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه إلا أن المعنى يتغير كقول أبي طالب الرقي :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً دُرر نُثرنَ على بساط أزرقي

« فلو قلت كأن النجوم درر وكان السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولاً ولكن المقصود من الهيئة المشبه بها قد زال ، وربما كان التشبيه في أمور كثيرة لا يتقيد بعضها ببعض وإنما يكون مضموماً بعضها إلى بعض ، وكل واحد منهما منفرد كقولك : « زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء » وكقولك : « هو يصفو ويكدر ويحلو ويمر » وله خاصيتان ، أحدهما : إنه لا يجب فيه الترتيب .

والثاني : إذا اسقط البعض لا يتغير حكم الباقي ومنه قول الشاعر :

سفرن بدوراً وانتقبن أهلةً ومسنَ غصوناً والتفتنَ جآذرا
وقول امرئ القيس :
كأن قلوبَ الطيرِ رطباً وبأساً

لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي

وقد ذكر بعض المتأخرين في التشبيه سبعة أنواع ، ونحن نوردها وإن لم يكن كلها منه :

الأول : التشبيه المطلق وهو أن تشبه شيئاً بشيء من غير عكس ولا تبديل كقوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ وقوله : ﴿ كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية ﴾ وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الناس كأسنان المشطِ » .

الثاني : التشبيه المشروط وهو أن تشبه شيئاً بشيء لو كان بصفة كذا أو لولا أنه بصفة كذا كقول : « أشبه وجه مولانا بالعيد المقبل لو كان العيد تبقى ميامنه وتدموم محاسنه » وكقوله : « وجه هو كالشمس لولا كسوفها والقمر لولا خسوفه » .

وكقول البديع الهمداني :

قد كان يحكيه صوب الغيث منسكباً
لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت
والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وكقول الآخر :

عزماته مثل النجوم لوامعاً لو لم يكن للشاقبات أفول
الثالث : تشبيه الكناية وهو أن يشبه شيئاً بشيء من غير أداة التشبيه
كقول المتنبي :

بدت قمراً وماست خوط بانٍ وفاحت عنبراً ورنّت غزالاً
وقول الوأواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد

الرابع : تشبيه التسوية وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه وصفة من
الصفات المقصودة ويشبهها بشيء كقوله :

صدغ الحبيب وحالي كلاهما كالليالي
وثغره في صفاء وأدمعي كاللالي
وقلت في هذا التشبيه :

أسروا إلى ليلى سراهم فما انجلئ
وبات كطرفي نجمه وهو حيران
كلانا غريق في الدموع وفي السرى
كأن دموع العين والليل طوفان

الخامس : التشبيه المعكوس وهو أن يشبه شيئين كل واحد منهما بالآخر

كقول بعضهم في النثر : « كم من دم أهرقناه في البر وشخص أهرقناه في البحر فأصبح البر بحراً من دمائهم والبحر برأ بأشلائهم » وكقول الشاعر :

الخمر تفاح جرى ذائباً كذلك التفاح خمرٌ جَمَدَ
فاشرب على جامدِ ذوبه ولا تبع لذة يوم لِعَدِ
وكقول صاحب بن عباد :

رقّ الزجاج وراقتِ الخمرُ فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنه خمرٌ ولا قدحٌ وكأنه قدحٌ ولا خمرٌ
وقول منصور الهروي :

الراحُ مثلُ الماءِ في كاساتها والماءُ مثلُ الراحِ في الغدران
السادس : تشبيه الاضمار وهو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدل
ظاهر لفظه على أن مقصوده غيره كقول المتنبي :

ومن كنتَ جاراً له يا عليَّ لم يقبلِ الدرُّ إلا كباراً
فيدل ظاهره على أن مقصوده الدر وإنما غرضه تشبيه الممدوح بالبحر
وكقول الشاعر :

إن كانَ وجهُكَ شمعاً فما لجسمي يذوب
السابع : تشبيه التفضيل وهو أن تشبه شيئاً بشيء ثم ترجع فترجع
المشبه على المشبه به كقوله :

حَسِبْتَ جَمَالَه بَدراً مضيئاً وأينَ البدرُ من ذاكَ الجمالِ
وكقول ابن هندو :

من قاسَ جدواكَ بالغمامِ فما أنصفَ في الحُكمِ بينَ شيئينِ
أنتَ إذا جُدتَ ضاحكاً أبداً وذلكَ إن جادَ دمعَ العينِ

وقد تقدم تشبيه شيء بشيء فأمّا تشبيه شيء بشيئين فكقول امرئ القيس :

وتعطو برخصٍ غير شنينٍ كأنه
أساريع رملٍ أو مساويكٍ إسحجلٍ

وأما تشبيه شيء بثلاثة أشياء فكقول البحترى :
كأنما تبسمُ عن لؤلؤٍ منضدٍ أو بردٍ أو أقحاح
وأما تشبيه شيء بأربعة أشياء فكما قلت :

يفتر طرسكُ عن سطورٍ جادها الـ
فكرُ السليمِ بصوبٍ مسكٍ أذفر
فكأنما هو روضةٌ أو جدولٌ
أو سِمْطٌ دُرٌّ أو قِلادةٌ عنبر

وأما تشبيه شيء بخمسة أشياء فكقول الحريري :
تفتر عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بردٍ
وعن أقحاحٍ وعن طلحٍ وعن حببٍ

وأما تشبيه شيئين فكما مر من قول امرئ القيس :
كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً
لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي

وأما تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر :
لينٌ وبدرٌ وغصنٌ شعرٌ ووجهٌ وقد
خمرٌ ودُرٌّ ووردٌ ريقٌ وشعرٌ وخذٌ

وأما تشبيه أربعة بأربعة فكقول امرئ القيس :
لَهُ أَيُّطَلًا ظبيٍّ وساقا نعامةٍ نعامةٍ وارخاءٍ سرحانٍ وتقريبٍ تتفلٍ

وكقول أبي نواس :
تبكي فتذري الدرّ من نرجسٍ وتلطمُ الوردَ بعُنبِ
وأما تشبيه خمسة بخمسة أشياء فكقول أبي الفرج الوأواء الدمشقي وقد
مر :

قالت متى البينُ يا هذا فقلتُ لها
أما غداً زعموا أو لا فبَعْدَ غَدِ
فأمطرتُ لؤلؤاً من نرجسٍ فَسَقْتُ
ورداً وعضتُ على العنابِ بالبردِ
ولي تشبيه أربعة بأربعة أشياء وهو :
كأن الدراري والهلالَ ودارةً حوتُهُ
وقد زانَ الثريا التأمها
جبابُ طفا من حولِ زورقِ فضةٍ
بكفّ فتاةٍ طافَ بالراحِ جامها

وقال الشيخ بدر الدين الحموي النحوي : أشدني شيخنا القاضي
قاضي القضاة نجم الدين البارزي سبعة أشياء بسبعة أشياء لنفسه :
يقطعُ بالسكين بطيخةً ضحىً على طَبَقٍ في مجلسٍ لأنَّ صاحبُ
كشمسٍ ببرقٍ قدَّ بدرأً أهلةً لدى هالةٍ في الأفقِ شتى كواكبهُ
ومن أنواع التشبيه التمثيل : وهو الذي يكون تشبيهاً واحداً مقيداً بقيود
ويظن أنه تشبيهات مجموعات كقوله :
كما أبرقتُ قوماً عطاشاً غمامةً فلما رجوها أقشعتُ وتجلتُ
فإن مجرد قوله : « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه
لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعا أدى إلى انتهاء مؤيس ، ومن ذلك

لا يتم إلاً بجملته البيت فإن تأدية الشيء إلى غيره حكم زائد على ذاته .
فصل :

الغرض من التشبيه قد يكون بيان إمكان وجود الشيء عند ادعاء ما لا
يكون إمكانه بيناً كقول ابن الرومي :
وكم أبٍ قد علا بابن ذرى شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

وكقول المتنبي :

فإن تفتق الأنامَ وأنتَ منهم فإنَّ المسكَ بعض دم الغزال
أو بيان مقداره كما إذا حاولت نفي الفائدة عن فعل إنسان قلت : هو
« كالقابض على الماء » لأن لخلو الفعل عن الفائدة مراتب مختلفة في الإفراط
والتفريط والوسط فإذا مثل بالمحسوس عرفت مرتبته ، وكذلك لو أردت
الإشارة إلى تنافي الشيين فأشرت إلى ماء ونار فقلت : هذا وذاك هل
يجتمعان ؟ كان تأثيره زائد على قول : هل الماء يجتمع والنار ؟ وكذلك إذا
قلت في وصف طول يوم : كأطول ما يتوهم ، أو أنشدت قوله :

في ليلٍ صول تناهى العرضُ والطولُ

كأنما ليله بالليل موصولُ

لم تجد فيه من الأنس ما تجده في قوله :

ويومٍ كظلل الرمحِ قصَّر طوله دمُّ الزق عَنَّا واصطفاق المزاهرِ

وما ذاك إلاً للتشبيه بالمحسوس وإلاً فالأول أبلغ لأن طول الرمح متناه ،
وفي الأول حكمت أن ليله موصول بالليل .. وكذلك لو قلت : في قصر اليوم
يوم كأنه ساعة وكلمح البصر لوجدته دون قوله :

ظللنا عند دار أبي أنيسٍ بيومٍ مثل سالفَةِ الذبابِ

وقوله :

ويومٍ كإيهامِ القطة مُزِينِ إليّ صباهُ غالبٌ ليّ باطلُهُ
وقد يكون غرض التشبيه عائداً على المشبه به وذلك أن تقصد على عادة
التخييل إن توهم في الشيء القاصر عن نظيره إنه زائد ، فتشبه الزائد به
كقوله :

وبدا الصباح كأن عُزَّتُهُ وجهُ الخليفة حينَ يُمتدِّحُ
وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصبح لأن تشبيه الوجه
بالصبح أصل متفق عليه لا ينكر ولا يستكثر ، وإنما يستكثر تشبيه الصباح
بالوجه ثم الغرض بالتشبيه إن كان الحاق الناقص بالزائد امتنع عكسه مع بناء
هذا الغرض ، وإن كان الجمع بين شيئين في مطلق الصورة والشكل واللون
صح العكس كتشبيه الصبح بغرة الفرس الأدهم للمبالغة في الضياء ، بل
لوقوع منير في مظلم وحصول بياض قليل في سواد كثير ، والتشبيه قد يجيء
غريباً في إدراكه إلى دقة نظر كقول ابن المعتز :

والشمس كالمرآة في كفِّ الأشنل

[مقلدات القدّ يقرون الدُّغَل]

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التي تراها للشمس إذا
انعمت التأمل في اضطراب نور الشمس ويقرب منه قول الآخر في طلوع
الشمس وظهورها في خلل الأوراق :

كأنَّ شعاعَ الشمسِ في كلِّ غُدوةٍ

على وَرَقِ الأشجارِ أوَّلَ طالعِ

دنائيرٌ في كفِّ الأشنلِ يضمها

لقبضٍ وتهوي من فروجِ الأصابعِ

وكقول الوزير أبي محمد المهلبى :

الشمسُ من مشرقها قد بدتْ مشرقة ليس لها حاجبُ
كأنها بودقةٌ أحميتْ يجولُ فيها ذهبٌ ذائبُ
ومن لطيف ما جاء في هذا النوع من التشبيه قول الأحيطل في صفة
مصلوب :

كأنه عاشقٌ قد مدَّ صفحته

يوم الوداعِ إلى توديعِ مرتجلِ

أوقائِم من نعاسٍ فيه لوثُهُ

مواصِلُ لتمطيه من الكَسَلِ

شبهه بالتمطي لأن المتمطي يمد يديه وظهره ، ثم يعود إلى حالته
الأولى فزاد فيه أنه مواصل لذلك ، وعلة بالقيام من النعاس لما في ذلك من
اللوثه والكسل ومن فساد التشبيه أن يجيء منكوساً كقول الفرزدق :

والشيبُ ينهضُ في الشباب كأنهُ

ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهار

فذكر أن الشيب يبدو في الشباب ثم ترك ما ابتدأ به ووصف الشباب بأنه
ليل يصيح فيه نهار والذي تقتضيه المقابلة الصحيحة أن يقول كما ينهض نهار
في جانبي ليل .

فصل :

التشبيه ليس من المجاز ، لأنه معنى من المعاني وله ألفاظ تدل عليه
وضعاً فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه وإنما هو توطئة لمن يسلك سبيل
الاستعارة والتمثيل لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له ، والذي يقع منه في حيز
عند أهل هذا الفن هو الذي يجيء على حد الاستعارة ، كذلك لمن يتردد في
الأمر بين أن يفعله أو يتركه : « أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى » والأصل فيه
أراك في ترددك كمن يتقدم رجلاً ويؤخر أخرى .

٦ - من كتاب (جوهر الكنز) لنجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي
المتوفي سنة ٧٣٧ هـ

باب التشبيه

حد التشبيه أن تُثبت للمشبه حكماً من أحكام المُشبه به قصداً
للمبالغة . والفرق بينه وبين الاستعارة ثبوت الأداة في باب التشبيه أو تقديرها
فيه ، مع طي ذكر المُشبه به ، وسقوطها في باب الاستعارة مع وجوب ذكر
المُستعار ليكون أبلغ من التشبيه .

وقال قوم إن التشبيه من باب الحقيقة . والذي عليه جمهور علماء البيان
أنه من باب المجاز ، وهو الأصح ، والله أعلم .

والتشبيه ينقسم إلى قسمين : بليغ وغير بليغ ؛ فالبليغ ما لم تظهر فيه
أداة التشبيه كقولك : زيدٌ أسدٌ ، وغير البليغ ما ظهرت فيه أداة التشبيه .

ولا يخلو التشبيه من ثلاثة أحوال : إما تشبيه معنى بصورة كقوله
تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ ماءً ﴾ (١) فشبه
ما لا يُدرك بالحاسة وهو الأعمال بما يُدرك بالحاسة وهو السراب .

وإما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشآتُ فِي

(١) سورة النور آية ٣٩ . قال الرماني : فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع
عليه . ثلاث رسائل ص ٧٥ .

البحر كالأعلام ﴿^(١) فشبّه صورة أجسام الفلك في عظيمها بالجبال .

وأما تشبيهه معنى بمعنى كقولك : زيدٌ أسدٌ ، فإن الغرض تشبيه الشجاعة التي هي معنى في زيد بالشجاعة التي هي معنى في الأسد .

وأما تشبيهه صورة بمعنى كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله ابن مسعود انه خط خطأ مربعاً في وسطه خط ، وخط إلى جانبه خطوطاً ثم خط خطأ خارجاً وقال : أتدرون ما هذه الخطوط ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فقال : الخط المربع هو الأجل والخط الذي في وسطه هو الإنسان ، والخطوط التي حوله الأعراض التي تنهشهُ إن تركهُ هذا نهشهُ هذا ، والخط الذي هو خارج الخط المربع هو الأمل . وهذه صورة الخط الذي وضعهُ صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

ثم إن كل واحد من هذه الأقسام إما أن يكون تشبيه مفرد بمفرد أو مركب بمركب ، أو مفرد بمركب - أو مركب بمفرد .

فتشبيه المفرد بالمفرد كقول البحري : ^(٣)

تَبَسَّمُ وَقَطُوبٌ فِي نَدَىٍّ وَوَعَىٍّ

كَالْقَيْثِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ الْعَارِضِ الْبَرْدِ

وتشبيه المركب بالمركب مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) الرحمن آية ٢٤ ، قال الرماني : فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها وقد اجتمعا في العظم : إلا أن الجبال أعظم . وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظيمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها .

(٢) في الأصل رسم استغنيا عن نقله لوضوحه من القول .

(٣) من قصيدة يمدح بها محمد بن حميد الطوسي ديوانه ٥٧٥/١ طبع المعارف بتحقيق الصيرفي . ورواية العجز (كالبرق والرعد وسط العارض في البرد) .

كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
وَالْأَنْعَامُ ﴿١﴾.

وتشبيه المفرد بالمركب كقول الشاعر: (٢)

وَرَمَلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَذَارَى قَطَعَتْهُ
إِذَا لَيْسَتْهُ الْمُظْلِمَاتُ الْحَنَادِسُ

وتشبيه المركب بالمفرد كقول الشاعر: (٣)

وَكَأَنَّ فَرْوَةَ رَأْسِهِ مِنْ شَعْرِهِ
بُذِرَتْ فَأَنْبَتَ جَانِبَاهَا فَلَفْلَا

ومن محاسن التشبيه قولُ الشاعر: (٤) في وصف البرق:

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ التَّلَالُ كَأَنَّهُ
سَيْفٌ عَلِيٌّ شَرَفٌ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

وهذا من المعاني العقم.

ومن محاسن (٥) التشبيه قولُ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاعِ* يَصِفُ قَرْنَ ظَبْيٍ:

(١) آية ٢٤ سورة يونس .

(٢) البيت لذي الرمة ديوانه ص ٤٠٨ ورواية العجز « إذا جلته المظلمات الحنادس » .

(٣) البيت للراعي وأورده ابن رشيقي في العمدة ٢/٢٩٧ وروايته :

جدلا أسك كأن فروة رأسه بذرت فأنبت جانبها فلفلا

(٤) البيت للطرماح ، وقيل أنه في صفة ثور وحشي ورواية الصدر :

* يبدو وتضميره التلاد كأنه *

وأورده ابن رشيقي في العمدة ١/٢٩١ تحقيق محي الدين عبد الحميد .

(٥) في الأصل حسن .

* عدي بن الرقاع : شاعر أموي من عاملة بن عدي بن الحارث : اختص بالوليد بن عبد الملك

وجعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الإسلاميين . هجاء جريير ولم يتصل الهجاء بينهما

وذكر أن البيت من قصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك ، ذكر المبرد أن جريراً لما سمعه =

تُزجِي أَعْنَ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ
قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَاهَا

فانظر إلى هذا التخييل ما أحسنه ؟

ومن ذلك لابن المعتز: (١)

مُعْتَقَّةٌ صَاغَ الزَّمَانُ لِرَأْسِهَا
أَكَالِيلَ دُرٍّ مَا لِمَنْظُومِهَا سِلْكُ
وَقَدْ خَفِيَتْ فِي ضَوْئِهَا فَكَأَنَّهَا
ضَمِيرٌ يَقِينٌ كَادَ يَدْخُلُهُ الشُّكُّ

وله أيضاً: (٢)

الْقَطْرُ نَبْلٌ وَالْعَدِيرُ سَوَابِغٌ
وَالْبَرْقُ بَيْضٌ وَالغَمَامُ بُنُودٌ

فانظر إن هذا التخييل العجيب ما أحسنه في باب التشبيه .

وله أيضاً (٣):

= ينشد أول هذا البيت « تزجي أعن كأن ابرة روقه » قال في نفسه : وقع والله الشيخ . من أين له كان ، فلما قال : « قلم أصاب من الدواة مداها » حسده .

(١) من قصيدة في ديوانه ص ٣٥٣ طبع صادر ببيروت مع اختلاف قليل في اللفظ راجع طبقات

ابن سلام طبع المعارف س ٥٥٨ ، الأغاني ١٧٣/٨ ، العملة ٢٠٣/١ ، عيار الشعر ١٨ .

(٢) ديوانه ٧/٢ من مقطوعة أربعة أبيات هي :

قم يا نديم إلى مباشرة الوغى فالحرب قائمة ونحن هجود
والليل قد أودى وقهقهه عنده الإبريق من طرب وناح العمود
ولئن زعمت بأن ذلك باطل فلنا عليه أدلة وشهود
انظر نبل ... الخ .

والسوابغ الدروع السابغة أي الكاسية ، والبيض السيوف .

(٣) ديوانه ٨١/١ من قصيدة مطلعها :

عز دمعني من بعد أهل العقيق فلألى عقوده كالعقيق

قَامَةُ الْغُصْنِ طَلَعَةُ الْبَدْرِ طَرْفُ
الظُّبِيِّ تَغْرُ الْأَقَاحِ خَدُّ الشَّقِيقِ

فانظر إلى صناعة هذا التشبيه ما أحسنها .

ومثله قوله: (١)

وَالطَّيْرُ يَقْرَأُ وَالغَدِيرُ صَفِيحَةٌ
وَالرِّيحُ تَكْتُبُ وَالْغَمَامَةُ تَنْقِطُ

ومثله له: (٢)

وَالسَّحْبُ رَايَاتٌ وَلَمَعُ بُرُوقِهَا
بِيضُ الظُّبِيِّ وَالْأَرْضُ طَرْفُ أَشْهَبُ
وَالنَّدَى قَسْطَلَةٌ وَزَهْرُ شُمُوعِهَا
صُمُّ الْقَنَا وَالْفَحْمُ نَبْلٌ مُذْهَبٌ

ومثله أيضاً له: (٣)

وَالْبَانُ تَرْقُصُ وَالْحَمَامُ هَوَاتِفُ
تَشْدُوا وَأَطْرَافُ الْغَدِيرِ تُصَفِّقُ

ومثله في حسن التشبيه: (٤)

وطلعتُها والفرعُ شمسٌ وليلةُ
ومبسمها والكاسُ صُبْحٌ وكوكبُ
وما لاحَ في الغربِ الهلالُ وإنما
هو البدرُ إجلالاً لها يتننَّفُ

(١) ديوان ابن المعتز ٤/٢ .

(٢) ديوانه ١١٦/١ والطرف : الفرس والمهر .

(٣) ديوانه ٣٠/١ .

(٤) ديوانه ١١٧/١ من قصيدة يمدح الملك العادل الأيوبي .

ومنها:

وَخَطَّ عِذَارٍ طَرْسُهُ مَاءَ وَجَنَةِ
فَيَا مَنْ رَأَى خَطًّا عَلَى الْمَاءِ يُكْتَبُ

وله أيضاً: (١)

وَكَأَنَّمَا زُهِرُ النُّجُومِ رَعِيَّةٌ
وَقُلُوبُهَا مِنْهَا تَخَافُ فَتَخْفُقُ

ومثله للبحثري (٢):

يُخْفِي الرُّجَا جَةَ ضَوْؤُهَا فَكَأَنَّهَا
فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءِ

ومثله لأبي عثمان الخالدي (*):

لَسْتُ أَدْرِي مِنْ رِقَّةٍ وَصَفَاءِ هِيَ فِي كَاسِهَا أَمِ الْكَأْسُ فِيهَا

ومثله قول الآخر:

هِيَ فِي رِقَّةِ الصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ وَفِي قَسْوَةِ النَّوَى وَالْفِرَاقِ
لَسْتُ أَدْرِي أَمِنْ حُدُودِ الْغَوَانِي سَكَبُوهَا أَمْ أَدْمَعِ الْعُشَاقِ

(١) ديوانه ١/١٦٨.

(٢) البيت من قصيدة للبحثري في مدح أبي سعيد الثغري . ديوانه ٧/١ وروايته .

يخفي الزجاجاة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير اناء
وراجع الموازنة ١/٣٦٠ بتحقيق سيد صقر . طبع دار المعارف .

(* أبو عثمان الخالدي هو أحد الخالدين ، وأصغرهما ، واسمه سعيد ، كان شاعراً في بلاط سيف الدولة . عمل مع أخيه خازني دار كتبه . ينسب إلى الخالدية : قرية من أعمال الموصل ولهما مؤلفات . منها «حماسة الخالدين» في شعر المحدثين وتسمى : «الأشباه والنظائر» راجع في ترجمته : الفهرست ١٦٩ وبتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ، ومعجم الأدباء لياقوت ج ٤ ومعجم البلدان : «الخالدية» ، وشرح المقامات للشريشي ١/٢٧٠ ، وفوات الوفيات لابن شاکر ١/٢١٨ .

ومن محاسن التشبيه قول ابن أبي حصينة(*) :
يا طيفُ كيفَ سَخَتْ بِكَ ابنةُ مالكِ
والصُّبْحُ نَضَلُ والظَّلَامُ قِرَابُ
والجَوْ مُشْتَبِكُ النُّجُومِ كَأَنَّهُ
كَأْسُ عَلاهُ مِنَ المِزَاجِ حَبَابُ

وله :

ولا تَثِقُ بِصَدِيقٍ لا تُجَرِّبُهُ
فربِّما زَهَّدَتْ فِيهِ تَجَارِبُهُ
كَذَلِكَ البَحْرُ صَافِي اللَوْنِ مَنْظَرُهُ
ولا تَلْدُ لظَمَانٍ مِشَارِبُهُ

ولابن الساعاتي (***) في التشبيه (١) :

فالأرض طِرْسُ والحَيَاءُ سَطُورُهُ
والبيضُ شَكْلٌ والقَنَا أَلْفَاتُهُ

ولابن الساعاتي أيضاً: (٢)

كَأَنَّ المَعَانِي حِينَ أعْجَمَهَا الشُّطُّ
بقايا زُبُورٍ والأثافي لها نَفْطُ

(*) ابن أبي حصينة : الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة السلمي من شعراء القرن الخامس بالشام .
(**) ابن الساعاتي : علي بن رستم بن هردوز توفي سنة ٦٠٤ هـ من شعراء الدولة الأيوبية راجع
الأدب في العصر الأيوبي ص ٣٠٢ .

(١) البيت ليس في ديوانه المطبوع وربما كان من قصيدته التي مطلعها ج / ١ / ٦٤ .
زحف الصباح وهذه راياته

وسقط من القصيدة .

(٢) ديوانه ٧٩ / ١ .

كَأَنَّ الْفَلَاحَ طَرَسَ وَمَنْ شَهِدَ الْوَعَى
سَطُورَ بِأَقْلَامِ الْعَوَالِي لَهَا خَطٌّ
إِذَا أَعْجَمَتْ فِي أَوْجِهِ الْقَوْمَ أَحْرُفًا
فَتَلِكُ حُرُوفٌ لِلْكَمَاءِ بِهَا كَشَطٌّ

وله من التشبيه الرائق الفائق: (١)

وَالْبَدْرُ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ وَعُمُرُهُ
فِي الْعُنْفُوانِ كَغُرَّةٍ فِي أَذْهِمِ
فَكَأَنَّمَا زَنْجِيَّةٌ مَحْبُوبَةٌ
جَلِيَتْ فَنَقَطَهَا الْمُحِبُّ بِدِرْهِمِ

وله من محاسن التشبيه: (٢)

مَا الْجَوُّ إِلَّا عَنَبَرٌ وَالِدُوحُ إِلَّا
جَوْهَرٌ وَالرَّوْضُ إِلَّا سُنْدُسٌ
سَفَرَتْ شَقَائِقُهَا فَهَمَّ الْأَقْحُوانُ
بِلَثْمِهَا فَرْنَا إِلَيْهِ النَّرْجِسُ

فَكَأَنَّ ذَا ثَغْرٍ وَذَا خَدَّيْحَا
وَلَهُ وَذَا أَبْدَأُ عِيونٌ تَحْرُسُ

وله أيضاً (٣)

وَكأَنَّمَا فَنَنْ الْأَرَاكِي مِنبَرٌ
وَهَزَّازُهَا فَوْقَ الذُّؤَابَةِ يَخْطُبُ

(١) ديوان ابن الساعاتي ٥٧/٢ من مقطوعة ٧ أبيات والبيتان السادس والسابع .

(٢) ديوانه ١٦٤/٢ .

(٣) ديوانه ١٦٨/٢ قالها وقد حضر قبل خروجه من دمشق مع جماعة من الأصدقاء بالنيرب على

شراب وعندهم سقاة كالشموس وجاء مطر كثير ورعد وبرق فسألوه أن يصف ذلك اليوم بديها .

والمقطوعة ثمانية أبيات والأول هنا ثانيها والثاني ثالثها والثالث ثانيها .

فَالرَّعْدُ يَشْدُو وَالْحَيَا يَسْقِي وَغُصْنُ
الْبَانِ يَرْقُصُ وَالْحَمَائِلُ تَشْرَبُ
وَالْقَطْرُ نَبْلٌ وَالغَدِيرُ سَوَابِغُ
مَوْضُونَةٌ وَالْبَرْقُ سَيْفٌ مُذْهَبٌ

ولغيره في هذا المعنى: (١)

أَيَادِيهِ بِيضٌ فِي الْوَرَى مَوْسَوِيَّةٌ
وَلَكِنَّهَا تَسْعَى عَلَى قَدَمِ الْخِضْرِ

ولغيره في هذا المعنى :

أَبْكِي فَأَبْصِرُ أَدْمَعِي فِي خَدِّهَا لِيَصْقَالَهَ فَأَخَالَهَا تَبْكِي لِي

ومثله لأبي تمام: (٢)

وثنائياك إنها إغريضُ ولالٍ بيضُ وبرقٌ وميضُ
وأقحاحٍ منورٌ في بطاحٍ
هَزُهُ فِي الصُّبْحِ رَوْضُ أَرِيضُ (٣)

وللبحتري في المعنى: (٤)

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنُّوَى مَوْعِدٌ لَنَا
تَعَجَّبَ رَائِي الدُّرَّ حُسْنًا وَلَا قِطَّةُ

(١) بشير بقوله أياديه بيض موسىة إلى الآية القرآنية (تخرج بيضاء من غير سوء) والحضر هنا هو العبد الصالح صاحب موسى .

(٢) ديوانه ص ١٨١ مطلع قصيدة يمدح أبا الغيث موسى بن إبراهيم .

وروايته : « لالٍ توم وبرق وبيض » .

(٣) والثنايا أربع الأسنان في مقدمة الفم ، والإغريض كل أبيض طري والأقحاح زهر الأبقحوان والبطاح . الصحارى وأريض مزهر مورق .

(٤) ديوان البحتري ١٢٣٠/٢ بتحقيق الصيرفي طبع المعارف . ورواية البيت الأول :

ولما التقينا والنوى موعدا لنا

فمن لؤلؤ تجلوه عند ايتسامها
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
ولسيف الدين المشد(*) في المعنى :

خاطبتني متبسماً فقرأتها
من نظم ثغرك في صحاح الجوهري
ولا بن التلعفري(**):

الشُّغْرُ مِنْهُ وَخَدُّهُ وَجَبِينُهُ
لَلنُّورِ بَلْ لَلنَّارِ بَلْ لَلنُّورِ
ومثله للصنوبري(*) : (١)

فالجو والغور والوادي وترتبه
درٌ ودرٌ وديباج وكافور
وأحسن ما قيل من التشبيه :

(*) سيف الدين المشد : علي بن قزل من شعراء الشام في القرن السابع الهجري ، وفد إلى مصر والتقى بشعرائها وأدبائها في أوليات عصر المماليك . وله شعر يذهب فيه إلى البديع . له ديوان ، عبارة عن مجموعة مقطعات ، ومنه صورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(**) التلعفري : نسبة إلى تل عفر قرب الموصل بالعراق وهما أثنان أحدهما من شعراء القرن الرابع والثاني « شهاب الدين » محمد بن يوسف بن مسعود ، ولد سنة ٥٦٣ هـ وتوفي سنة ٦٧٥ هـ وله ديوان مطبوع . راجع ترجمته في فوات الوفيات لابن شاعر ٥٤٦/٢ ، والنجوم الزاهرة ٥٥/٧ وشذرات الذهب ٣٤٩/٥ .

(*) الصنوبري : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المراد ، الصنوبري الحلبي (توفي سنة ٣٣٤ هـ) راجع في ترجمته فوات الوفيات لابن شاعر وشذرات الذهب لابن العماد .
(١) البيت ليس في الجزء المنشور من مجموع شعره .

قَدِيمَ الرَّئِيسِ مُقَدِّمًا فِي سَبْقِهِ
فَنَكَّأْنَا الدُّنْيَا سَعَتِ فِي طُرْفِهِ
فَجِبَالُهَا مِنْ جِلْمِهِ وَبِحَارُهَا مِنْ جُودِهِ وَرِيَاضُهَا مِنْ خُلُقِهِ
وَكَأَنَّهَا الْأَفْلَاكُ طَوْعُ يَمِينِهِ
فَنَحْوُسُهَا لِعَدُوِّهِ وَسُعُودُهَا فِي أَفْقِهِ

ومن التشبيه :

ومدامية صفساء في قارورة زرقاء تحمها يد بيضاء
فالراح شمس والجباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

* * *

ومما يلتحق بهذا الباب باب الأوصاف والنعوت.

٧- من كتاب (الإيضاح) للخطيب القزويني المتوفي سنة ٧٣٩ هـ

المجاز : (١)

والمجاز مفرد ومركب :

المجاز المفرد

أما المفرد فهو الكلمة^(٢) المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصبح مع قرينة عدم إرادته .

فقولنا « المستعملة »^(٣) ، احتراز عما لم يستعمل لأن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى مجازاً كما لا تسمى حقيقة .

(١) راجع ١٥٣ مفتاح ، ٣٠٤ وما بعدها و٢٤٣ أسرار البلاغة .

(٢) « الكلمة » جنس .

(٣) فصل احترازه عن الكلمة قبل الاستعمال وبعد الوضع فليست بمجاز ولا حقيقة . وقوله في غير ما وضعت له ، أي في معنى مغاير للمعنى الذي وضعت الكلمة له فصل آخر احتراز به عن الحقيقة ، مرتجلاً كان أو منقولاً أو غيرهما كالمشتقات ويرد عليه أنه إن أريد الوضع الشخصي خرج عن التعريف التجوز فيما هو موضوع لمعناه الأصلي بالنوع كالمشتقات وإن أريد الوضع النوعي خرج التجوز فيما كان الوضع فيه لمعناه الأصلي شخصياً كالأسد وإن أريد ما هو أعم من الشخصي والنوعي لم يشمل شيئاً من أفراد المجاز إلا أن يجاب بأن المراد

وقولنا في اصطلاح به التخاطب^(١) ليدخل فيه نحو لفظ الصلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازاً بأنه وإن كان مستعملاً فيما وضع له في الجملة^(٢) فليس بمستعمل فيما وضع له في الاصطلاح الذي به وقع التخاطب^(٣).

وقولنا : « على وجه يصح »^(٤) احتراز من الغلط كما سبق .

وقولنا « مع قرينة عدم إرادته »^(٥) احتراز عن الكناية كما تقدم

= الوضعان ويرتكب التوزيع أي في غير ما وضعت وضعاً شخصياً في الموضوعة بالوضع الشخصي وفي غير ما وضعت له وضعاً نوعياً في الموضوعة بالوضع النوعي .

(١) هذا قيد في الفصل للدخال لا للخارج فالجنس لا يخرج به ، والفصل للخارج ، وقيد الفصل للدخال .

وقوله « في اصطلاح به التخاطب » متعلق بقوله « وضعت » والمراد بذلك كونه موضوعاً له في ذلك الاصطلاح سواء حدث الوضع في ذلك أو لا .

(٢) أي في بعض الاصطلاحات وهو اللغة .

(٣) وهو الشرع فهو مجاز شرعي بمقتضى اصطلاح الشرع وإن كان حقيقة لغوية بمقتضى اصطلاح اللغة ، وقيد « في اصطلاح به التخاطب » أيضاً يخرج من تعريف المجاز ما يكون له معنى آخر باصطلاح آخر الذي هو من أفراد الحقيقة كلفظ الصلاة المستعملة بحسب الشرع في الأركان المخصوصة فإنه يصدق عليه أنه كلمة مستعملة في غير ما وضعت له لكن بحسب اصطلاح آخر وهو اللغة لا بحسب اصطلاح التخاطب وهو الشرع فلذا لا تكون مجازاً .

(٤) متعلق بالمستعملة وهو فصل يخرج به الغلط فلا بد في المجاز من ملاحظة العلاقة ليكون الاستعمال على وجه يصح والغلط الذي يخرج بذلك هو اللساني أما الغلط في الاعتقاد فتارة يكون حقيقة وتارة يكون مجازاً .

(٥) أي حال كون تلك الكلمة المستعملة في الغير مصاحبة لقرينة فقرينة المجاز مانعة من إرادة الأصل واشتراط القرينة المذكورة في المجاز وإخراج الكناية بها إنما هو عند من لم يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز كاليانين أما من جوزه كالأصوليين فلا يشترط في القرينة أن تكون مانعة فعندهم يجب إسقاط هذا القيد من التعريف وإذا سقط دخلت الكناية .

وقوله مع عدم إرادته أي إرادة الموضوع له وضعاً حقيقياً

ملاحظات :

١ - ملاك الأمر أن المجاز لا يتقيد إلا بوجود علاقة (ارتباط بين الانتقال من المعنى الحقيقي إلى =

والحقيقة (١) لغوية وشرعية وعرفية خاصة (٢) أو عامة (٣) ، لأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية ، وإن كان الشارع فشرعية ، وإلا فعرفية ، العرفية أن تعين صاحبها نسبت إليه كقولنا كلامية ونحوية ، وإلا بقيت مطلقة . مثال اللغوية : لفظ أسد إذا استعمله المخاطب بعرف اللغة في السبع المخصوص ، ومثال الشرعية لفظ صلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في العبادة المخصوصة ، ومثال العرفية الخاصة لفظ فعل إذا استعمله

= (المجازي) وأن يكون موافقاً لعرف البلغاء ومناسباً لذوق البيئة وأن يعتمد على قرينة مانعة .
٢ - البيانين بوجود في القرينة أن تكون مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ومقارنة للمجاز ، بخلاف الأصوليين فقد أجازوا أن تكون غير مانعة كما أجازوا ألا تقارن المجاز حيث يجيزون تأخير البيان لوقت الحاجة . أما كون القرينة معينة للمراد فلم يشترطه جمهور البيانين واشترطه عصام الدين .

٣ - القرينة اما لفظية أو حالية ، وقد تكون أمراً واحداً أو أمراً كل واحد منها يصلح أن يكون قرينة ، أو مجموع أمور كلها قرينة واحدة .

٤ - القرينة المانعة واشتراطها في المجاز لإخراج الكناية بناء على أنها واسطة لا حقيقة ولا مجاز لأن الكناية الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له مع جواز إرادة ما وضعت له أي بأن لا ينصب المستعمل قرينة على انتفائه ، فالكناية لفظ استعمل في لازم الموضوع له مع جواز إرادة الملزوم ومجرد جواز إرادة الملزوم لا يوجب كون اللفظ مستعملاً فيه .

ويرى السبكي عكس هذا وهو أن الكناية أريد بها موضوعها استعمالاً وأريد لازمه إفادة فهي موضوعة لأن اللفظ عين فيها للدلالة على معناه الذي هو موضوع اللفظ بنفسه ، وكونها دالة على لازم ذلك المعنى بقرينة حالية كدلالة طويل النجاد على طول القامة يحتاج لقرينة لكن ذلك ليس المعنى الذي استعملت الكلمة فيه .

٥ - أطوار كلمة الحقيقة هي : حقيقة وصفاً لمؤنث في نحو قولهم هي المرأة حقيقة بالحصانة ، ثم حقيقة مستعملة استعمال الأسماء في نحو قولهم هو يدافع عن الحقيقة ، ثم الحقيقة البيانية .

(١) ١٥٣ مفتاح .

(٢) أي يكون ناقله هو المعنى اللغوي طائفة مخصوصة من الناس منسوين لحرفة كالتحويين والمصرفيين وغير ذلك .

(٣) وهي ما لا يتعين ناقلها بطائفة مخصوصة وإن كان معيناً في نفس الأمر .

المخاطب بعرف النحو في الكلمة المخصوصة ، ومثال العرفية العامة لفظ « دابة » إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذي الأربع^(١) .

وكذلك المجاز المفرد^(٢) : لغوي وشرعي وعرفي ، مثال اللغوي لفظ أسد إذا استعمله المخاطب بعرف اللغة في الرجل الشجاع ، ومثال الشرعي لفظ صلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء ، ومثال العرفي الخاص لفظ فعل إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الحدث ، ومثال العرفي العام لفظ دابة إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في الشاة . والحقيقة^(٣) إما فاعيل بمعنى مفعول ، من قولك حققت الشيء أحقه إذا أثبتته ، أو فاعيل بمعنى فاعل من قولك حق الشيء إذا ثبت ؛ أي المثبتة أو الثابتة في موضعها الأصلي ؛ فأما التاء فقال صاحب المفتاح : هي عندي للتأنيث في الوجهين ، لتقدير لفظ الحقيقة قبل التسمية صفة مؤنث غير معجزة على الموصوف^(٤) وهو الكلمة ؛ وفيه نظر^(٥) ؛ وقيل : هي لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية الصرفة كما قيل في أكيلة ونطيحة إن التاء فيهما لنقلهما من الوصفية إلى الاسمية ، فلذلك لا يوصف بهما فلا يقال شاة أكيلة أو نطيحة .

(١) أي في ذي القوائم الأربع المعهودة وهي الحمار والبغل والفرس .

(٢) ص ١٥٣ مفتاح . هذا وأما المجاز فلأن الاصطلاح الذي به وقع التخاطب وكان اللفظ مستعملاً في غير ما وضع له في ذلك الاصطلاح إن كان هو اصطلاح اللغة فالمجاز لغوي وإن كان اصطلاح الشرع فشرعي وإلا فعرفي عام أو خاص فهذه الأقسام بالنسبة إلى الحقيقة تعتبر بالقياس إلى الواضح ، وأما في المجاز فباعتبار الاصطلاح الذي وقع الاستعمال فيه في غير ما وضع له وهذه الأقسام في غير الأعلام الشخصية ، فقد أخرجها بعض العلماء من الحقيقة والمجاز ، والمعقول أن تكون من الحقيقة ولا مانع أن نقول هي حقيقة شخصية .

(٣) ص ١٥٣ مفتاح .

(٤) لأنها في هذه الحالة يصح الحاق التاء بها إذا كانت من فاعيل بمعنى مفعول .

(٥) لأنه يجوز أن يقال هذا اللفظ حقيقة ولو كانت للتأنيث لم يجز .

والمجاز (١) قيل مفعول (٢) من جاز المكان يجوز إذا تعداه (٣) أي تعدت موضعها الأصلي ؛ وفيه نظر ؛ والظاهر (٤) أنه من قولهم جعلت كذا مجازاً إلى حاجتي أي طريقاً له على أن معنى جاز المكان : سلكه ، على ما فسره الجوهري وغيره فإن المجاز طريق إلى تصور معناه واعتبار التناسب في التسمية يغاير اعتبار المعنى في الوصف ، كتسمية إنسان له حمرة بأحمر ، ووصفه بأحمر ، فإن الأول لترجيح الأسم على غيره حال وضعه (٥) له والثاني لصحة

(١) ص ٣٤٢ أسرار ، ١٥٤ مفتاح .

(٢) أي باعتبار أصله مصدراً ميمياً على هذا الوزن .

(٣) فهي مشتقة من جاز يجوز ، ويصح أن تكون من الجواز على أن المصدر هو الأصل كما عليه البصريون فقد نقل المجاز إلى الكلمة الجائزة أي المتعدية مكانها الأصلي أو المجوز بها على معنى أنهم جازوا بها وعدوها مكانها الأصلي ، فهو في الأصل مصدر بمعنى الجواز والتعدية ثم نقل في الاصطلاح من المصدرية إلى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له باعتبار أنها حائزة مكانها الأصلي أو مجوز بها فيكون اسم فاعل واسم مفعول .

(٤) حاصله أن لفظ مجاز في الأصل مصدر ميمي ، يعني مكان الجواز والسلوك وهو نفس الطريق ثم نقل في الاصطلاح إلى الكلمة الخ باعتبار كونها طريقاً إلى تصور المعنى المراد منها فالحاصل أن المصنف وعبد القاهر اتفقا على أن لفظ مجاز مصدر ميمي لا يصلح أن يكون المستعمل في الزمان منقولاً هنا لعدم المناسبة ثم اختلفا فقال المصنف المنقول هنا هو المستعمل اسم مكان وقال عبد القاهر المنقول هنا هو المستعمل في الحدث . [المصدر الميمي يصلح للزمان والمكان والحدث] وأيد المصنف رأيه بأن استعمال المصدر الميمي في الحدث بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول مجاز بخلاف استعماله اسم مكان .

(٥) راجع ص ١٢٧ ج ١ من البيان والتبيين .

الخلاصة : أن نقد الخطيب لرأي عبد القاهر من أن المجاز مفعول من جاز المكان يجوز إذا تعداه خلاصته أن المجاز على هذا يكون مصدراً ميمياً واستعمال المصدر الميمي بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول محاذ بخلافه على ما اختاره فإنه يكون اسم مكان ولا يحتاج إلى ارتكاب هذا التأويل فيه .

ملاحظات :

١ - خلاصة ما سبق أن كلمة مجاز في اللغة صالحة للحدث والمكان والزمان ، فلاحظ عبد =

إطلاقه ، فلا يصح نقض الأول بوجود المعنى في غير المسمى كما يلهج به الضعفاء (١)

والمجاز ضربان (٢) : مرسل (٣) واستعارة . لأن العلاقة المصححة (٤)

القاهر أنها نقلت من الحدث إلى المعنى الفني ، ولاحظ الخطيب أنها نقلت من المكان إليه ؛ وأما نقلها من الزمان فلا معنى له .

٢ - التاء في الحقيقة قيل أنها للنقل ومعنى كونها تاء النقل أنها علامة على النقل ، وقيل هي علامة على الاسمية التي هي فرع الوصفية وهو الأصح . وقيل أنها علامة على الفرعية .

٣ - قيل إن كل مجاز له حقيقة يتفرع منها ، والتحقيق أن هذا غالبي ، فرحمنا استعمل في المنعم وهو معنى مجازي ولم يستعمل في المعنى الأصلي وهو رقيق القلب .

٤ - في الدسوقي [٤٨٦ ج] بحث عن المجاز وهل هو من مقتضى الظاهر أو من خلافه .

٥ - العلاقة هي الأمر الذي به الارتباط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي وبه الانتقال من الأول للثاني كالمشابهة في مجاز الاستعارة وكالسببية في المرسل والعلاقة المعتبر نوعها لا شخصها ، ولذا صح إنشاء المجاز في كلام المولدين وإنما اشترط في المجاز ملاحظة العلاقة بين المعنى المجازي والأصلي ولم يصح إطلاق اللفظ عليه بلا علاقة ويكتفي بالقرينة الدالة على المراد ، لأن إطلاق اللفظ على غير معناه الأصلي ونقله له على أن يكون الأول أصلاً والثاني فرعاً تشريك بين المعنيين في اللفظ وتفرع لأحد الاطلاقين على الآخر، وذلك يستدعي وجهاً لتخصيص المعنى الفرعي بالتشريك والتفرع دون سائر المعاني وذلك الوجه هو المناسبة والأفلا حكمة في التخصيص ويكون تحكماً ينافي حسن التصرف في التأصيل والتفرع .

(١) فعلة التسمية لا يلزم أطرادها أو انعكاسها ، بخلاف علة الوصفية ، فعلة التسمية لا توجهها بخلاف علة الوصفية .

(٢) راجع ٣٠٤ ، ٣٠٥ و ٢٥٠ و ٢٥١ من أسرار البلاغة ، ص ١٥٤ من المفتاح .

(٣) سمي مرسلأ (مطلقاً) لأن الارسال لغة الاطلاق والمجاز الاستعاري مقيد بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به والمرسل مطلق عن هذه الدعوى ، وقيل لارساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة بل ردد بين علاقات بخلاف المجاز الاستعاري فهو مقيد بعلاقة واحدة هي علاقة المشابهة .

(٤) أي لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له .

إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة (١) وإلا فهو مرسل .

وكثيراً ما تطلق الاستعارة على استعمال (٢) اسم المشبه به في المشبه (٣) ؛ فيسمى (٤) المشبه به مستعاراً منه ، والمشبه مستعاراً له ، واللفظ (٥) مستعاراً .

(١) هذا مخالف لاصطلاح عبد القاهر والسكاكي ، والتحقيق أن العلاقة إذا كانت المشابهة ولم تقصد المبالغة فلا يكون ذلك استعارة وإن قصدت المبالغة كان استعارة .
فعلنى هذا الاستعارة هي اللفظ المستعمل في معنى شبه ذلك المعنى المستعمل فيه بالمعنى الأصلي لذلك اللفظ لعلاقة المشابهة كأسد في قولنا رأيت أسداً يرمي ، وإطلاق لفظ الاستعارة على اللفظ المستعار من المعنى الأصلي للمعنى المجازي من إطلاق المصدر على المفعول .

(٢) أي فعل المتكلم وهو المعنى المصدرى ، لا على اللفظ المستعار .

(٣) فعلنى هذا تكون بمعنى المصدر ، فالاستعارة على هذا استعمال اللفظ ، وهو توسع ، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل لا الاستعمال ، وهذا ليس خاصاً بالاستعارة ، بل المجاز كذلك ، فهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه أو استعمال اللفظ في غير . الخ .

(٤) أي فيصح الاشتقاق منها على أنها بالمعنى المصدرى ، بخلاف إطلاق الاستعارة على نفس اللفظ المستعار ، فإنه لا يصح منه اشتقاق لأن اسم المفعول لا يشتق منه .

(٥) أي لفظ المشبه به فيسمى مستعاراً لأنه بمنزلة اللباس الذي استعير من أحد فالس غيره وهو المعنى المشبه ، فالتشبيه بين المعاني والاستعارة للألفاظ ، ففي « رأيت أسداً يرمي » المعنى المشبه هو ذات الرجل الشجاع وهو المستعار له ، والمعنى المشبه به هو الحيوان المقترس وهو مستعار منه ، ولفظ أسد مستعار ، والمتكلم بهذا مستعير .

ملاحظات :

١ - لا بد في جميع أقسام المجاز من العلاقة المصححة للانتقال ومرجع العلاقة للزوم وإن كان الزوم قد يذكر في بعض الأوقات علاقة ؛ وإنما كان مرجع العلاقة للزوم لأن مرجع المجاز دلالة التضمن والالتزام ، وكل منهما انتقال من الملزوم إلى اللازم ؛ ألا ترى أن مجازي الاستعارة التحقيقية والمكنية يصح أن يرد إلى اللازم [راجع ٢٨٦ / الدسوقي] .

٢ - المجاز بمرتبين لمراتب :

هو لفظ أريد به معنى لم يوضع له مع وجود واسطة أو وسائط بين المعنى الحقيقي وبينه =

وعلى الأول لا يشتق منه لكونه اسماً للفظ لا للحدث .

ولم يلاحظ صحة استعمال اللفظ في الواسطة أو في الوسائط ، وذلك مثل « وأنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم » ، أريد من اللباس أولاً الغزل ، ثم أريد به الزرع ، ثم الماء .

٣ - المجاز على المجاز :

مثل : لا تواعدوهن سراً؛ استعمال السر في الوطاء مجاز مرسل علاقته المحلية لأن الوطاء يكون غالباً في السر ، ثم أريد من الوطاء العقد مجازاً مرسلًا علاقته السببية (السر ضد الجهر = ثم الوطاء = ثم العقد) .

ومثل :

بني عمنا لأن تذكروا الشعر بعدما

دفتم بصحراء الغمير القوافيا

أطلق القوافي على الشعر مجازاً مرسلًا علاقته الجزئية ، ثم أطلق الشعر على المفخر مجازاً مرسلًا علاقته المسببة .

ومثل : « هو قرّة عين لي ولك » أطلق القرّة على سببها مجازاً مرسلًا علاقته المسببة ؛ ثم أطلق سبب القرّة على الانشراح والسرور مجازاً مرسلًا علاقته السببية (هو قرّة = هو سبب قرّة = هو مبعث سرور وسعادة) .

فالمجاز على المجاز هو مجاز مبني على مجاز آخر منزل منزلة المعنى الحقيقي .

٤ - شرطوا في القرينة كما سبق أن تكون مانعة وهو رأي علماء البيان أما الأصوليون فقد أجازوا الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فمثل « الخال أحد الأبوين » من عموم المجاز أي يراد منه معنى كلي يشمل الحقيقي والمجازي معاً ، فالمعنى المستعمل فيه اللفظ واحد لا اثنان ، أما الأصوليون فيقولون إن اللفظ مستعمل في كل منهما الأب والخال المدعى أبوته .

٥ - القرينة هي الأمر الذي يصرف الذهن عن المعنى الوضعي إلى المعنى المجازي سواء عينت المراد أم لم تعينه ، مثل رأيت بحوراً في المدينة ؛ فكلمة « في المدينة » قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ولكن لم تعين المراد من البحور أهم العلماء أم الأجواد ؟ واشترط عصام الدين في القرينة مع منعها من إرادة المعنى الحقيقي أن تكون معينة للمعنى المراد .

٦ - مثل السببية والحالية والمحلية الخ علاقات للمجاز المرسل ، أما الاستعارة فعلاقتها = المشابهة .

الضرب الأول المرسل^(١)

وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه^(٢):

كاليد إذا استعملت في النعمة^(٣) ، لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ومنها تصل إلى المقصود بها^(٤) ؛ ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولي لها^(٥) ، فلا يقال : « اتسعت اليد في البلد » ، أو « اقتنيت يداً » ، كما

= هذا ويمكن ارجاع علاقات المجاز المرسل المتعددة إلى شيء واحد هو التلازم بين المعنيين : الحقيقي والمجازي ، سواء كان التلازم في الخارج أم في الذهن ؛ وبهذا تصبح علاقات المجاز اللغوي إما المشابهة في الاستعارة وإما التلازم في المجاز المرسل ، بل إن علاقة المشابهة يجوز إرجاعها إلى علاقة التلازم .

(١) راجع ١٥٥ مفتاح ، ٣٠٥ و ٣٥١ أسرار .

(٢) الأولى كما سبق : غير المبالغة في التشبيه .

ويرى السبكي أنه إذا كانت العلاقة في المجاز المشابهة فإن قوى الشبهه بحيث يمكن ادعاء أن هذا هو ذلك كان استعارة وإلا كان مجازاً مرسلأ ؛ قال : ويشهد لصحة ذلك قول السكاكي في المجاز المرسل إنه الخالي عن المبالغة في التشبيه ؛ ولم يقل الخالي عن التشبيه (٣٠١ ح ٣ السبكي) .

أقول وكلام السكاكي هو كلام عبد القاهر في الأسرار [ص ٣٠٤ الأسرار] .

(٣) راجع ٢٦٨ صناعتين في ذلك . وقال الشاعر .

له أياد على سالفه أعد منها ولا أعددها -
وقال آخر :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة على يداً أغضبي لها حين أغضب
فاليد الموضوعه للجارحة المخصوصه إذا استعملت في النعمة كانت مجازاً مرسلأ لكونها بمنزلة العلة الفاعلية للنعمة لأن النعمة منها تصدر وتصل إلى المقصود بها فهي مجاز مرسل من إطلاق اسم السبب على المسبب ؛ قال السبكي : أو من إطلاق المحل على الحال أما العلة الفاعلية حقيقية فهي الشخص المعطي والعلاقة هنا العلة الفاعلية .

(٤) راجع ٣٤٣ و ٣٠٥ من الأسرار ، ١٥٥ مفتاح .

(٥) هذا الشرط هو الذي توجد به العلاقة ولولاه لم يكن علاقة بين اليد والنعمة فإنما يكون للنعمة =

يقال « اتسعت النعمة في البلد » ، أو « اقتنيت نعمة » ؛ وإنما يقول « جلت يده عندي » ، « وكثرت أياديه لدي » ، ونحو ذلك .

ونظير^(١) هذا في صفة راعي الإبل : « إن له عليها إصبعا^(٢) أرادوا أن يقولوا : له عليها أثر حذق ؛ فدلوا عليه بالاصبع ، لأنه ما من حذق في عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللفظ في رفعها ووضعها كما في الخط والنقش ؛ وعلى^(٣) ذلك قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ : أي نجعلها كخف البعير فلا يتمكن من

= ارتباط باليد إذا لوحظ المولي لها . وقال السبكي . هذا لا يتعين ، بل يذكر قرينة ما ، فقد تحصل القرينة من غير إشارة إلى المولي مثل رأيت يدأ عمت الوجود ، وقد تحصل الإشارة إلى المولي ولا قرينة تصرف إلى المجاز مثل يعجبني يد زيد ، ثم إن « جلت يده عندي » ليس فيه ما يعين المجاز ، أما « كثرت أياديه » فلفظ « كثرت » قرينة .

(١) راجع ٣٠٦ من الأسرار .

(٢) قال المبرد : يقال لفلان عليك يد وله عليك إصبع ؛ وكل جيد ، وإنما يعني هنا النعمة . [١٧٢ ج ١ الكامل] .

وذكر عبد القاهر ما ذكره الخطيب [٣٠٥ الأسرار] . وقال الشاعر :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له عليها إذا ما أجذب الناس إصبعا
(٣) راجع ٣٠٧ من الأسرار .

ملاحظة :

الأفعال الدالة على القدرة لما كانت لا تظهر إلا باليد صارت القدرة وآثارها كل منهما لا يظهر إلا باليد وإن كان ظهور أحدهما مباشرة وظهور الآخر بواسطة ، فصارت اليد كالعلة الصورية لهما ، فالعلاقة ترجع إلى معنى السببية . هذا وأنواع العلاقة المعتبرة في المجاز المرسل كثيرة ترتقي إلى خمسة وعشرين . والمصنف قد أورد هنا تسعة غير ما ذكره أولاً في إطلاق اليد على النعمة والقدرة بعلاقة السببية الصورية إذ العلاقة فيهما السببية في الجملة وهي داخلية فيما يأتي ، إلا أن يقال السببية الآتية غير هذه لأن هذه سببية تنزيلية والآتية سببية حقيقية ، فمثل « للأمير يد أي قدرة » ينتقل من اليد إلى الآثار الظاهرة ومن الآثار إلى القدرة التي هي أصلها من بناء مجاز على مجاز آخر تقديراً ، فالعلاقة كون اليد كالعلة الصورية للقدرة وآثارها ، فاليد مجاز عن الآثار من إطلاق اسم =

الأعمال اللطيفة فأرادوا بالاصبع الأثر الحسن ، حيث يقصد الإشارة إلى حذق في الصنعة ، لا مطلقاً حتى يقال رأيت أصابع الدار ، وله إصبع حسنة وإصبع قبيحة على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك .

وينظر إلى هذا قولهم « ضربته سوطاً » لأنهم عبروا عن الضربة الواقعة بالسوط باسم السوط ، فجعلوا أثر السوط سوطاً ، وتفسيرهم له بقولهم : المعنى « ضربته بالسوط » بيان لما كان الكلام عليه في أصله^(١) .

ونظير قولنا « له على يد » قول^(٢) النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأزواجه : أسرعن لحوقاً - ويروي لحاقاً - بي أطولكن يداً ، وقوله « أطولكن » نظير ترشيح الاستعارة^(٣) ، ولا بأس أن يسمى ترشيح المجاز^(٤) ، والمعنى بسط اليد بالعتاء ، وقيل قوله « أطولكن » من الطول بمعنى الفضل ، يقال : فلان على فلان طول أي فضل^(٥) ، فاليد على هذين الوجهين بمعنى النعمة ، ويحتمل أن يريد أطولكن يداً بالعتاء ، أي أمدكن ، فحذف قوله بالعتاء للعلم به^(٦) .

= السبب على المسبب ، والآثار مجاز عن القدرة من إطلاق اسم المسبب على السبب فرجعت العلاقة للسببية .

(١) راجع ٣٠٨ من الأسرار .

(٢) راجع ٣٠٨ أسرار ، ٣٨٢ مطول

(٣) لأن الطول أي الانعام يناسب اليد الأصلية ، والصحيح أنه يلائم النعمة أيضاً فلا يكون ترشيحاً . وجعله من الطول ضد القصر يؤدي إلى خلو الكلام عن الاخبار بكثرة الجود المقصود إلا أن يقال إنه مستعار للاتساع في العطاء وهو ترشيح باعتبار أصله .

(٤) فهو مأخوذ من الطول بالفتح بمعنى الانعام والاعطاء وذلك ملائم لليد الأصلية لأن الانعام إما يكون بها . والأظهر أن الطول بمعنى الانعام كما يلائم اليد الأصلية يلائم النعمة فلا يكون ترشيحاً .

(٥) فلا ترشيح على هذا ولا تجريد على المختار .

(٦) قال الجاحظ بعد أن ذكر الحديث : فكانت عائشة تقول أنا أطول مكن يداً ؛ فكانت زينب =

وكاليد أيضاً إذا استعملت في القدرة^(١) ، لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع ، وغير ذلك من الأفعال التي تنبئ عن وجوه القدرة ومكانها : وأما اليد في قول النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمنون تكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »^(٢) ، فهو استعارة ، والمعنى أن مثلهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة في التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين في تعاضدهم على المشركين ، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم .

وكالراوية^(٣) للمزادة^(٤) مع كونها للبعير الحامل لها ، لحمله إياها

= بنت جحش ، وذلك أنها كانت امرأة كثيرة الصدقة وكانت صناعاً تصنع بيدها وتبيعه وتتصدق به [ج ٨٥ ج ٢ البيان والتبيين] .

(١) قال تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقال : ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ وقال الشاعر : « تلقاها عرابة باليمين » ؛ وعبد القاهر يعتبر هذا تمثيلاً ، فالمعنى تمثيل القدرة باليمين لما في أخذ الشيء بها من قوة التمكن . والحق أن كل هذا كناية عن شدة التمكن والاستيلاء وليس مجازاً مرسلًا ولا تمثيلاً . وقيل إن اليد في القدرة مجاز مرسل علاقته الحالية . ومن المثل لهذا المجاز أيضاً قول الشاعر :

وحملت زفرات الضحى فأطقتها ومالي زفرات العشي يدان
وقال الشاعر :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت
وقول الشاعر :

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يداً
(٢) ج ٣١ ج ٢ البيان ، ٢٠٩ من الأسرار ، ٥٩ ج ١ زهر الآداب .

(٣) راجع ٣٤٤ الأسرار ، ١٥٥ مفتاح . فالراوية في الأصل اسم للبعير الذي يحمل المزادة ، وفي القاموس : الراوية البعير والبغل والحمار الذي يستقى عليه فاطلاقه على المزادة مجاز .

(٤) المزادة ظرف الماء الذي يستقى به على الدابة التي تسمى راوية . والعلاقة هنا كون البعير حاملاً لها أي مجاوراً لها عند الحمل فالعلاقة المجاورة وهي بمنزلة العلة المادية وهي علاقة =
أخرى غير المجاورة وهي مطلق السببية

وكالحفص في البعير^(١) مع كونه لمتاع البيت لحمله إياه .

وكالسماء في الغيث^(٢) ، كقوله : « أصابتنا السماء » ، لكونه من جهة المظلة .

وكالأكاف في قول الشاعر :

[إن لنا أحمرة عجافاً] يأكلن كل ليلة إكافاً
أي علفاً بثمرن الاكاف^(٣) .

وهذا الضرب من المجاز يقع على وجوه كثيرة غير ما ذكرنا :

١ - منها تسمية الشيء باسم جزئه^(٤) (أو الجزئية) :
كالعين^(٥) في الربيثة ، لكون الجارحة المخصوصة هي المقصود في

= هذا والعلاقة قيل إنها تعتبر وصف المنقول عنه كما في الأمثلة وهو التحقيق وقيل تعتبر وصف المنقول إليه ، وقيل إنها تعتبر وصفاً لهما معاً .

(١) ٣٤٤ الأسرار . قال شبيب بن البرصاء :

فلم تذرف العينان حتى تحملت مع الصبح أحفاض لهم وحدوج
[٧٥ المفضليات شرح السندوي] .

(٢) ٣٤٤ الأسرار ، ١٥٥ مفتاح ، ٢٦٨ صناعتين ، ٦٤ الصاحي .

(٣) هو أبو حزابة الوليد بن حنيفة بمدح طلحة الطلحات ، والأكاف البرذعة أطلق على العلف لأن ثمنه سبب في الحصول عليه فهو من علاقة السببية ، فهو مجاز على مجاز (الاكاف ، ثم ثمن الأكاف ، ثم العلف) ، أريد من الاكاف ثمنه مجازاً مرسلأ علاقته السببية ، وأريد من الاكاف بمعنى الثمن العلف مجازاً مرسلأ علاقته السببية ، ويصح كون المراد من « يأكلن » يفنين مجازاً ، أي أنها من هزالتها تظهرها فأصبح كالمدية يحذ البرذعة فيفنيها . هذا والأحمر جمع حمار . والعجاف الهزيلة جمع عجفاء على غير قياس . والشطر الأخير في المفتاح ص . ١٥٥ .

(٤) المجاز ليس هو نفس التسمية ، بل هو اللفظ الذي كان للجزء وأطلق على الكل بملابسة .

= (٥) ٣٤٤ و ٣٤٥ الأسرار وقال وقال تأبط شراً :

كون الرجل ربيثة ، إذ ما عداها لا يغنى شيئاً مع فقدتها فصارت كأنها الشخص
كله^(١) .

وعليه قوله تعالى : قم الليل إلا قليلاً أي صل ، ونحوه لا تقم فيه
أبداً ، أي لا تصل ، وقول النبي عليه السلام : من قام رمضان إيماناً واحتساباً
غفر له ما تقدم من ذنبه ، أي من صلى^(٢) .

٢ - تسمية الجزء باسم كله أو الكلية :

ومنها عكس ذلك ، نحو « يجعلون أصابعهم في آذانهم »^(٣) أي

= ويجعل عينيه ربيثة قلبه إلى سلة من حد أخلق صائك
[٢٢ ج ١ حماسة]

والربيثة الشخص الرقيب (الجاسوس) والعين جزء منه ، فالعلاقة الجزئية .

(٣) ويقول الشاعر :

كم بعثنا الجيش حرا را وأرسلنا العيوننا
(٢) وقال الله تعالى : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ .

ومن هذا قول الشاعر :

وكنت إذا كف أتتك عديمة ترجى نوالا من سحابك بلت
وقول الشاعر :

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا فليس لمخضوب البنان يمين
فقوله يمين مجاز مرسل أيضاً علاقته السببية ، أي وفاء ، واليمين سبب في الوفاء وتقول :
هؤلاء وجوه البلد ، وقال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أي ذاته ؛ وقال تعالى :
﴿ فك رقبة ﴾ وقال الشاعر :

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني
وهذا وقد اشترطوا في هذه العلاقة :

١ - أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً فلا يعبر بالأرض عن مجموع الأرض والسماء .

٢ - أن يكون لهذا الجزء مزيد اختصاص بالمعنى المقصود بحيث يلزم من انتفاء هذا الجزء
انتفاء ذلك الكل عرفاً .

(٣) قيل إن هذا من باب نسبة الفعل الذي في نفس الأمر للجزء إلى كله ، ولا يسمى مجازاً ، =

أناملهم . وعليه قولهم : قطعت السارق ، وإنما قطعت يده .

٣ - تسمية المسبب باسم السبب أو السببية^(١) :

ومنها تسمية المسبب باسم السبب ، كقولهم : رعينا الغيث^(٢) ، أي النبات الذي سببه الغيث .

وعليه قوله عز وجل : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ؛ سمي جزاء الاعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء^(٣) .

وقوله تعالى : ونبلوا أخباركم ، تجوز بالبلاء عن العرفان لأنه مسبب عنه ، كأنه قيل ونعرف أخباركم .

= مثل ضربت زيداً ومسحت بالمنديل . وفيه تعسف لأن نسبة مطلق الجعل إلى الأصابع كثيراً ما يراد به الكل فلولا الأذان لجرى على الأصل وأما الضرب فلا يخلو من تصوره على الكل فجعل من باب الحقيقة وإلا لم يخل كلام عن مجاز غالباً . ثم القرينة في المثال هي استحالة دخول الأصابع بتمامها في الأذان عادة ، وفيه مزيد مبالغة ويصح أن يكون التجوز في الإسناد أو على حذف مضاف أي أنملة أصابعهم

أما اسم الكلي إذا استعمل في الجزئي فقول حقيقة مطلقاً (على أن اللام في تعريف الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما وضعت له لام التعليل ولا شك أن اسم الكلي وضع لأجل استعماله في الجزئي) وقيل إن كان استعمال اسم الكلي في الجزئي من حيث اشتماله على الكلي فهو حقيقة وإن كان استعماله فيه لا بالنظر إلى ما ذكر بل من حيث ذاته كان مجازاً .
(١) ١٥٥ مفتاح وص ١٥ من الموازنة . والسببية هي كون المعنى الحقيقي للفظ سبباً للمعنى المجازي المراد .

(٢) قال أبو هلال في ٢٦٨ صناعتين : ويطلقون السماء على الغيث . وأقال جرير من قصيدته في هجاء الراعي النميري :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناها وإن كانوا غضابا
وراجع القصيدة في ٣٢٤ الأدب الإسلامي لمحمود مصطفى ، وأولها :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولي أن أصبت لقد أصابا
والبيت « إذا نزل السماء » نفسه في المفضليات ص ١٧٢ ، من قصيدة لمعاوية بن مالك .

(٣) راجع ص ١٣ ما اتفق لفظه للمبرد .

وعليه قول عمرو بن كلثوم^(١) :
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الجهل الأول حقيقة، والثاني مجاز^(٢) ، عبر به عن مكافأة الجهل .

وكذا قوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، تجوز بلفظ السيئة عن
الاقتصاص ، لأنه مسبب عنها ، قيل وإن عبر بها عما ساء أي أحزن لم يكن
مجازاً ، لأن الاقتصاص محزن في الحقيقة كالجناية .

وكذا قوله تعالى : ومكروا ومكر الله تجوز بلفظ المكر عن عقوبته لأنه
سببها ، قيل ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة ، لأن المكر هو التدبير فيما
يضر الخصم ، وهذا محقق من الله تعالى ، باستدراجه إياهم بنعمه مع ما أعد
لهم من نقمة^(٣) .

٤ - تسمية السبب باسم المسبب أو المسببية^(٤) :

ومنها تسمية السبب باسم المسبب ، كقولهم « أمطرت السماء نباتاً » ؛

(١) راجع ١٤ ما انفق للمبرد ، ١٧٩ الدلائل .

(٢) هذا ولك أن تقول إن الجهل الثاني في حقيقته أيضاً لأنه لم يقل فنجهل مثل جهل الخ بل قال
« فوق جهل الجاهلينا » .

(٣) ملاحظة : استعمال الكلبي في الجزئي :

قيل حقيقة مطلقاً بناء على أن اللام في قولهم في تعريف الحقيقة « المستعملة فيما وضعت
له » للتعليل .

وقيل إن اللام صلة فيكون الكلبي المستعمل في الجزئي من حيث خصوصه مجازاً مرسلأ من
استعمال العام في الخاص فعلاقته العموم والخصوص وإن استعمل في الجزئي من حيث كون
الجزئي فرداً من أفرادها كان حقيقة .

(٤) أي أن يكون مدلول اللفظ الحقيقي مسبباً عن المعنى المجازي المراد .

وعليه قولهم « كما تدين تدان (١) أي كما تفعل (٢) تجازي ، وكذا لفظ الأسنمة في قوله يصف غيثاً :

أقبل في المسبتن من ربابه أسنمة الأبال في سحابه (٣)

وكذا تفسير إنزال أزواج الأنعام في قوله تعالى ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ بإنزال الماء على وجه (٤) لأنها لا تعيش إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء ؛ وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها ، ويؤيده ما ورد أن كل ما في الأرض من السماء ينزله الله تعالى إلى الصخرة ثم يقسمه ؛ قيل وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ ، وقيل معناه « وقضى لكم (٥) » ، لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح كل كائن يكون ؛ وقيل خلقها في الجنة ثم أنزلها (٦) ، وكذا قوله تعالى ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ أي مطراً هو سبب الرزق ؛ وقوله تعالى : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ ، وقولهم

(١) ولبيد بن الصعق الكلبي [٥٦ ج ١ الكامل]:

واعلم وأيقن أن مالك زائل واعلم بأن كما تدين تدان
وقال الفند الزماني في حرب البسوس [١٥ ج ١ الحماسة] .

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

(٢) فأطلق الدين وهو الجزاء على الفعل لأن نفس الفعل سبب في الدين بمعنى الجزاء .

(٣) المسبتن : المنصب ، من استن الفرس . الرباب : السحاب الأبيض . الأبال : الجمال جمع

إبل . أسنمة : جمع سنام أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الإبل فتصير شحومها في

أسنمتها [٦٨ ج ٢ كامل المبرد] .

(٤) أي على رأي .

(٥) فالمجاز على هذا في « أنزل » وعلاقته المسببية ، والقرينة ذكر الأنعام ، وعلى الأول المجاز

في « ثمانية أزواج » والعلاقة هي هي والقرينة « أنزل » .

(٦) وعلى هذا فليس في الآية مجاز .

« فلان أكل الدم » أي الدية التي هي مسيبة عن الدم^(١) قال :
أكلت دماً إن لم أرعك بضرة

بعيدة مهوى القرط طيبة النشر^(٢)

وقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ أي أردت القراءة
بقريئة الفاء مع استفاضة السنة بتقديم الاستعاذة. وقوله تعالى^(٣) : ﴿ ونادى
نوح ربه ﴾ ، أي أراد بقريئة: فقال رب ، وقوله تعالى : ﴿ وكم من قرية
أهلكناها ﴾ أي أردنا إهلاكها ، بقريئة فجاءها بأسنا ، وكذا قوله تعالى ما
آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، بقريئة « أفهم يؤمنون » وفيه دلالة واضحة على
الوعيد بالإهلاك إذ لا يقع الإنكار في « أفهم يؤمنون » في المجاز إلا بتقدير
ونحن على أن نهلكهم^(٤) .

(١) هذا سهو لأن المثال من تسمية المسبب وهو الدية باسم السبب وهو الدم وأجاب بعضهم عن
المصنف بأنه يريد أن « أكل » مجازاً مرسلأ لأن الأكل سبب في المراد منه وهو الأخذ فهو من
تسمية السبب باسم المسبب .

(٢) هو لأعرابي تزوج امرأة فلم توافقه فقبل له أن حمى دمشق سريعة في موت النساء فحملها
إليها . وقبل هذا البيت :

دمشق خذيها واعلمي أن ليلة تمر بعودي نعشها ليلة القدر
بعيدة مهوى القرط (أي الحلق) : كناية عن طول العنق . النشر : الرائحة الطيبة . . والبيت
في الحماسة [٣٨١ ج ٢] .

(٣) ١٥٦ من المفتاح .

(٤) هذا رأي السكاكي في الآية فمعناها عنده : « هؤلاء الذين اقترحوا عليك إنزال آية من السماء
أردنا إهلاكهم وكل من أردنا إهلاكهم لا يؤمنون فهؤلاء لا يؤمنون . ويرى علماء التفسير أن
معنى الآية : لم تؤمن أمة من الأمم التي أعطيناها ما اقترحت فأهلكناها فهؤلاء لا يؤمنون لو
أعطوا ما اقترحوه ونحن لا نريد إهلاكهم فلا نجيبهم إلى ما اقترحوا .

ملاحظة :

من مثل المجاز المرسل الذي علاقته السببية قوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ ،
أي آثار البغضاء ، ومنها :

٥ - تسمية الشيء باسم ما كان عليه: (١).

ومنها تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، كقوله عز وجل : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ ، أي الذين كانوا يتامى إذ لا يتم بعد البلوغ (٢) ، وقوله : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ سماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجمام .

٦ - تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه: (٣)

ومنها تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه كقوله تعالى : ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ (٤)

٧ - تسمية الحال باسم محله أو المحل (٥):

ومنها تسمية الحال باسم محله ، كقوله تعالى « فليدع ناديه » أي أهل ناديه (٦).

٨ - تسمية المحل باسم الحال أو الحالية (٧):

= تمنى رجال ما أحبوا وإنما تمنيت أن أشكو إليها فتمعنا أي فتجيب .

(١) أي على صفته في الزمان الماضي لكنه ليس عليه الآن . وقيل أن الاطلاق المذكور حقيقي

استطصحاباً للاطلاق حال وجود المعنى . وقيل بالوقف

(٢) يرى بعضهم أن اليتيم على حقيقته ، فالمجاز في « وآتوا » بأن يراد منه لازمه وهو حفظ المال ،

لعلاقة المسببية . وقيل اليتيم يطلق على البالغ حقيقة استصحاباً للماضي فلا مجاز في الآية .

(٣) أي في الزمان المستقبل تحقيقاً أو ظناً لا احتمالاً .

(٤) أي عنياً فيصير إلى هذه الحال [٦٨ ج ٢ كامل المبرد] .

ومثل ذلك : « هدى للمتقين » ، « من قتل قتيلاً فله سلبه » (راجع ٣٦ ج ٣ ابن يعقوب) .

ومثل ذلك : يمرض المريض وتضل الضالة .

(٥) أي المكان الذي يحل فيه ذلك الشيء .

(٦) وقيل المجاز في الآية مجاز بالحذف .

ومثل ذلك : « وأحسن ندياً » أي أناساً في ندي ، و« أسأل القرية » أي أهلها .

(٧) فيما إذا ذكر لفظ الحال وأريد المحل لما بينهما من الملازمة .

ومنها عكس ذلك ، نحو « وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله »
أي في الجنة^(١) .

٩ - تسمية الشيء باسم آله أو الآلية^(٢) :

ومنها تسمية الشيء باسم آله كقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا
بلسان قومه ؛ أي بلغة قومه ، وقوله تعالى واجعل لي لسان صدق في
الآخرين ، أي ذكراً جميلاً وثناء حسناً^(٣) .

(علاقات أخرى للمجاز المرسل) :

وكذا غير ذلك مما بين معنى اللفظ وما هو موضوع له تعلق سوى
التشبيه .

قال صاحب المفتاح^(٤) :

وللتعلق بين الصارف عن فعل الشيء والداعي إلى تركه يحتمل عندي
أن يكون المراد بمنعك في قوله تعالى^(٥) : ﴿ ما منعك أن لا تسجد إذ

(١) التي تحل فيها الرحمة . وهو مجاز على مجاز :

أطلقت الرحمة بمعنى رقة القلب وأريد منها أثرها من الأنعام والتفضل مجازاً مرسلأ علاقته
السببية ثم أريد من ذلك المنعم به وهو النعم مجازاً مرسلأ علاقته السببية أيضاً ثم أريد من
ذلك الجنة مجازاً مرسلأ علاقته الحالية .

(٢) أي فيما إذا ذكر اسم الآلة - وأريد الأثر الذي ينتج عنه ، فالآلية هي كون الشيء واسطة في
إيصال أثر المؤثر إلى المتأثر . فالآلة هي الواسطة بين الفعل وفاعله والسبب ما به وجود
الشيء . وقيل الآلة من جملة أفراد السبب لأن بها وجود الشيء .

(٣) راجع ١٨٠ ج ١ الكامل المبرد . فاللسان اسم لآلة الذكر . وقيل هو من اطلاق المحل على
الحال لأن الذكر حال في اللسان . وقال بعض المفسرين « لساناً » أي ولدأ صادقاً يجدد ديني
ويدعوه إليه المتأخرين عني فهو على هذا مجاز مرسل علاقته الجزئية .

(٤) ١٥٦ مفتاح .

(٥) راجع ص ١١٩ الاسكافي - درة التنزيل .

أمرتك ﴿ دعاك ، ولا غير صلة^(١) قرينة المجاز ، وكذا ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن . وقال الراغب رحمه الله : قال بعض المفسرين إن معنى ما منعك ما حماك وجعلك في منعة مني في ترك السجود أي في معاقبة تركه . وقد استبعد ذلك بعضهم بأن قال : لو كان كذلك لم يكن يجب بأن يقول أنا خير منه ، فإن ذلك ليس بجواب السؤال على ذلك الوجه وإنما هو جواب من قيل له ما منعك أن تسجد .

ويمكن أن يقال في جواب ذلك إن إبليس لما كان ألزم ما لم يجد سبيلاً إلى الجواب عنه إذا لم يكن له من كاليء يحرسه ويحميه ، عدل عما كان جواباً ، كما يفعل المأخوذ بكظمه في المناظرة .

انتهى كلامه .

= ملاحظة :

سبق أن ذكرنا أن الانتقال في المجاز من الملزوم إلى اللازم ، وبعض أنواع العلاقة بل أكثرها [كالتامى ؛ والعنب ، والنادي ، والرحمة ، واللسان] لا يفيد اللزوم ، فلا وجه لجعلها علاقة لأن العلاقة أمر بسببه يحصل الانتقال من المعنى الحقيقي للمجازي لاستلزامه إياه . والجواب أنه ليس معنى اللزوم هنا عدم الانفكاك في الذهن أو الخارج بل تعلق وارتباط ينتقل بسببه من أحدهما إلى الآخر في الجملة وفي بعض الأحيان ، وهذا متحقق في كل أمرين بينهما علاقة وارتباط فجميع أنواع العلاقة على هذا تفيد اللزوم ، وحاصل الجواب أن اللزوم هنا ليس المراد به اللزوم الحقيقي أعني امتناع الانفكاك في الذهن أو الخارج بل المراد به الاتصال ولو في الجملة . ثم هذا تذكرة لما سبق في المقدمة في الكلام على اللزوم .

(١) فالعلاقة عند السكاكي الضدية ، أو نقول إنها علاقة اللزومية إذ التعلق بين الصارف والداعي معناه أنهما مثلاً زمان غالباً .

هذا والآية لها معنيان : معنى حقيقي هو أي سبب منعك من السجود وهذا المعنى قطع فيه النظر عن كلمة « لا » ومعنى مجازي مراد وهو أي سبب دعائك لعدم السجود وهذا هو المعنى المجازي المنظور فيه إلى كلمة « لا » ؛ فكلمة « لا » قرينة على أن الآية مراد منها ما دعاك إلى عدم السجود .

| وهذا تعسف ، والأولى أن يكون كلام السكاكي معناه هكذا : للتعلق بين الصارف عن فعل =

أقسام للمجاز المرسل :

وقسم الشيخ صاحب المفتاح^(١) المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة ومفيد :

١ - وجعل الخالي عن الفائدة ما استعمل في أعم مما هو موضوع له ، كالمرسن في قول العجاج :

وفاحما ومرسنا مسرجا^(٢)

فإنه^(٣) مستعمل في الأنف لا بقيد كونه لمرسون^(٤) مع كونه موضوعاً له بهذا القيد . لا مطلقاً . وكالمشفر في نحو قولنا : فلان غليظ المشافر « إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشفة لا غير » . وقال^(٥) سمي هذا الضرب غير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين من نحو ليث وأسد وحبيس ومنع عند المصير إلى المراد^(٦) منه .

= الشيء (وهو السجود) والداعي إلى تركه (وهو ترك عدم السجود) .
ملاحظة :

زاد بعضهم علاقات . اللزومية ، والاطلاق والتقييد ، والعموم ، والخصوص والتعلق الاشتقائي وهو إطلاق المصدر على اسم الفاعل أو اسم المفعول وبالعكس مثل هو نبل وذكاء ، وحجاب مستور أي ساتر ، وهم غياث الناس ، ومن العلاقات المجاورة مثل : فشككت بالرمح الأصم ثيابه ، ليس الكريم على القنا بمحرم - أي جسمه وقلبه ، ويصخ أن تكون علاقته المحلية .

(١) من المفتاح .

(٢) سبق البيت وراجع في ٢٣ و ٤٨ أسرار ، ١٥٥ مفتاح ، و ٢٤ ج ٢ الأمالي .

(٣) أي المرسن (وهو الأنف) .

(٤) أي البعير

(٥) ١٥٥ مفتاح .

(٦) فعلاقة هذا المجاز عند السكاكي التقييد

٢ - وأراد بالمفيد ما عدا الخالي عن الفائدة والاستعارة كما مر والشيخ عبد القاهر رحمه الله^(١) :

١ - جعل الخالي عن الفائدة ما استعمل في شيء بقيد ، مع كونه موضوعاً لذلك الشيء بقيد آخر ، من غير قصد التشبيه^(٢) . ومثله ببعض ما مثله الشيخ صاحب المفتاح ونحوه ، مصرحاً بأن الشفة والأنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان ، فإن قصد التشبيه صار اللفظ استعارة كقولهم في مواضع الدم غليظ المشفر فإنه بمنزلة أن يقال كأن شفته في الغلظ مشفر البعير ؛ وعليه قول الفرزدق^(٣) .

فلو كنت ضبيأً عرفت قرابتي ولكن زنجي غليظ المشافر
أي ولكنك زنجي ، كأنه جمل لا يهتدي لشرقي^(٤) ، وكذا قول الحطيئة
يخاطب الزبرقان^(٥)

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره
فإنه وإن عني نفسه بالجار جاز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء
الحال ليزيد في التهكم بالزبرقان ، ويؤكد ما قصده ، من رميه بإضاعة الضيف

(١) راجع ٢٢ و ٣٢ و ٣٥٢ و ٣٥٣ من أسرار البلاغة .

(٢) فعلاقته عنده التقييد ثم الاطلاق .

(٣) البيت في ٢٨٢ ج ١ الكتاب لسيبويه ، ٢٧ من الأسرار ، والخطاب لأيوب بن عيسى الضبي وكان قد حبس الفرزدق فقال ذلك هجاء له .

(٤) فهو هنا استعارة لا مجاز مرسل ، وذلك لقصد التشبيه .

(٥) راجع ٢٧ أسرار البلاغة .

قروا : أضافوا . العمان : العطشان إلى اللبن . قلص : انكمش من تأثير البرودة كناية عن أنه كان لا يجد عنده إلا الماء .

وإسلامه للضر والبؤس ؛ وكذا قول الآخر^(١) :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

(١) هو عقفان القيسي أو الأخطل ، والبيت في ص ٢١ من الأسرار، وص ٢٩٣ صناعتين .
يعني بملك غطفان بن قيس بن عاصم . الأظلاف جمع ظلف وهو لما اجتر من الحيوان
كالظفر للإنسان ويريد بذلك أنه حر لا عبد .
ملاحظات :

١ - نحو « مشفر زيد مجروح » المشفر لغة شفة البعير ؛ ثم أريد هنا مطلق شفة ، فكان المجاز
المرسل هنا منقولاً عن المقيد إلى المطلق وكان مجازاً مرسلأً علاقته التقييد ، ثم نقل
من مطلق شفة إلى شفة الإنسان فكان مجازاً مرسلأً بمرتبين وكانت علاقته التقييد
والاطلاق ، وذلك ما لم يقصد التشبيه وإلا كان « المشفر » استعارة . وهذا هو رأي
عبد القاهر في هذا النوع من المجاز المرسل ، أما السكاكي فيرى أن المشفر اسم
للمقيد وهو شفة البعير فأطلق أي جرد من قيده وهو إضافة للبعير واستعمل في شفة
الإنسان من حيث أنها من أفراد مطلق شفة ، فهو عنده مجاز مرسل بمرتبة وهي
التقييد بناء على أن العلاقة وصف المنقول عنه .

٢ - بلاغة المجاز المرسل تتلخص فيما يلي :

- (أ) يوسع اللغة ويعين على الافتنان في التعبير .
(ب) وكثيراً ما يدعو إليه المعنى كالتعظيم في قولك « رأيت الملك » أي ولي العهد .
(ج) وقد يدعو إليه اللفظ والمعنى جميعاً كاستعمال الأذن في الرجل الكثير الاستماع
للوشة ، فلفظ الأذن أخف لفظاً وهو مع ذلك أدق تصويراً للمعنى .

الفهرست

مقدمة ..	٥
القسم الأول : علم البيان : نشأته وتطوره وأقسامه	٩
الفصل الأول: نشأة علم البيان وتطور مباحثه	١١
الفصل الثاني: التشبيه	٣٣
الفصل الثالث : المجاز، (المجاز العقلي - أنواع العلاقة في المجاز العقلي)	٤٩
المجاز المرسل - الاستعارة - التصريحية والمكنية - الأصلية والتبعية - المطلقة والمجردة والمرشحة - التمثيلية	٥٩
الفصل الرابع : الكناية	٨٣
القسم الثاني: نصوص بلاغية في البيان	٨٧
١ - من كتاب البديع لعبدالله بن المعتز	٨٩
٢ - من كتاب التشبيهات من أشعار اهل الأندلس	
لأبي عبدالله محمد بن الكتاني	١٠٧
٣ - من كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني	١٢٣

- ٤ - من كتاب البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ الكتاني ١٤١
- ٥ - من كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسد في شهاب الدين
محمود الحلبي ١٤٧
- ٦ - من كتاب جواهر الكنز لنجم الدين أحمد بن اسماعيل بن
الأثير الحلبي ١٦٣
- ٧ - من كتاب الإيضاح للخطيب القزويني ١٧٥